SHARIF

FI ZILAL AL-HURRIYAH

2274.87566.334
Sharīf
Fī zilāl al-hurrīyah

DATE	ISSUED TO
AUG 1 0 1965	Bindery

2274.87566.334
Sharīf
Fī zilāl al-hurrīyah

DATE	ISSUED TO
AUG 1 0 1965	Bindery

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

2274
.87566
.334

Princeton University Library
32101 074331826

الدكتور
محمد بديع شريف

في ظلال الحرية

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

Sharif, Muhammad Badi'

الدكتور
محمد بديع شريف

يقدم إلى الشاعر الأديب
الدكتور أحمد زكي أبو شادي
مع التحية [illegible] المؤلف
١/٦/٥٦

Fī ẓilāl al-ḥurrīyah

في ظلال الحرية

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنيادي

بسم الله الرحمن الرحیم

وبه نستعین

كلمة

فى أحضان الحرية يتفتّح الرأى ، مثلما تتفتح الزهرة فى ضحوة الشمس بللها الندَى وداعبها النسيمُ . وبين يديها تندفع المواهبُ من مكامنِها تخترع وتبتدع لتنشىء مقوماتِ الأمة . والحريةُ تبعثُ العدلَ ، فإن العدل لا يبسُط جناحيه إلا فى ظلالها ، وإذا نطق لسانُ العدل اعتدلت الموازين ، فلا ترجح كفةٌ إلا إذا ثقل الراجح بعلمه وعقله وأدبه وخلقه وكمال إنتاجه .

وهنا يفتح المحيطُ ذراعيه للموهوبين الذين يكوِّنون الجيلَ ، فينبت فى هذا الجيل فردٌ يعرف معنى الجماعةَ ، وجماعةٌ تعرِفُ معنى الفرد ، وأحزاب تعرف معنى الأمة ، وأمة تعرف معنى الأحزاب ، ويصبح التنافس والتزاحم على الفضائل وبدائع التكوين ، وتتواءم أعمال المبدعين مثلما

2274
.87566
.334

تتواءم نَغَمَات الموسيقى فى القطعة الخالدة ، وهكذا يَتّسِق نظام المجتمع . فما أسعد الأمم التى تظللها الحرية ويشيع فى أرجائها العدل ! .

إذا اختفت الحرية مات العدل ، وإذا مات العدل اضطربت الموازين واختلت درجات المقاييس ، ونبتت الجَرْبَزَةُ فى حقول الحقائق ، وصار الفَدْمُ يسمى عبقريا والجاهلُ عالما فيلسوفا ، والسارِقُ حاذقا ماهرا ، والثرثار خطيبا مُفَوَّها . ومعنى كل ذلك أن الحق يختنق ويتكلم الباطل ، واذا تكلم الباطل خاف البرىء وأَمِنَ المسىء ، وإذا أمن المسىء توارى الاطمئنان ، وإذا توارى الاطمئنان كَنَسَتْ مواهب الإبداع فى مكانس الخوف وتوارت فى ظلمة الذّلة . وصار الحر صيداً مباحاً . ومتى توارى الإبداع والإنشاء فى أمة فأنذرها بالتحلل من كل قيد ، والتفسخ فى كل ناحية .

إننا نُنْشِدُ الحرية حتى لا نكون صيداً مباحا ، ونؤمن بها كى نَسْمو عن عبادة الأصنام إلى عبادة الديان ، ونريدها

لنبدع فى ظلالها ، فتعتدلُ أزمَّةُ الحكم وتتسق مدارسُ المجتمع فى أحضان الأحزاب ، وبين يدى الجامعات ، وينشأ الرجال المبدعون ، ويتوارى من الوجود أشباه الرجال ، ونتغلب على المِحَنِ ونجتثُّ عَوْسَجَ الآراء المتطرفة المتشابكة فنخرج بالأمة إلى ضاحية واضحة ، تتشعب فيها طرق الحياة . . .

حُرِّيَتُنا

تثور العواصف فيضطرب البحر ، وتصطخب أمواجه ، وتلْطمُ وجوهَ الشاطىء ، ثم تعلو تارة وتهبط أخرى ، حتى يَفْثأَ البحرُ سورةَ العاصفة ، فيجرى رهْواً وتسير أمواجُه كما تشاء وتريدُ ؛ لا كما تشاء العواصف .

ويسمع الطير هَجْهَجَةً ، فيضرب الريحَ ، ويطير فى الجو ، يصفق بجناحيه ، يتوجه حيث يشاء ، ويقع حيث يريد .

كذلك نحن ولدتنا أمهاتُنا أحرارًا ، ولن تستطيع قوةٌ فى العالمِ ، ولا جبار من جبابرة الأرض أن يَسْلُبَنا ماوَهَبَنا جبارُ السموات والأرض .

نشأنا فى حضْنِ الطبيعة كما نشأت الحريةُ معنا بين يدى الكون ، واستقبلتنا باسمةً حين تَنَشَّقْنا هواءَ هذا العالم ، واستقبلناه بأيدينا ، وتفتحت عيوننا بضيائه ، نَفْثأُ

قوةَ الجبابرة ، كما يَفْثَأُ البحرُ سورة العواصف ، ونلطم وجه الظالم ، نطلب الفضاء كما يلطم الطائرُ وجه الريح يطلب وُجُهَات الجو ، ذلك لأن إرادتنا تريد أن تندفع للابداع ، لأنها خلقت للابداع ، وتريد غرائزنا أن تسبر أسرار الكون لتهيء لهذه الإرادة مواطنَ التكوين والإنشاء .

ولن تستطيع الغرائز أن تَسْبُرَ أسرارَ الكون إذا صُفِّدَتْ بالقيود ، كما لايستطيع النهر أن يجرى إذا وقفت فى مجراه السدود .

فإذا تجمعت هذه الغرائز للوثبة ، وحالت دون سيرها الأصفاد ، أرغمت الإرادة على العزم ، وانفجرت انفجار البراكين تَشَقَّقُ حولها الأرض ، أو انفجار القنابل تدك متون الجبال ، هكذا يسير الأحرار فى الحياة ؛ يَخْضِدون اليد التى تمتد إلى أعناقهم لتخنقها ، ويخفون صوت الذى يريد أن يخفى أصواتهم ، ويدوسون بأرجلهم صِغار الناس الذين يمنعون غرائزهم ، ويقفون فى سبيل إرادتهم لِيَرْقَوْا سُلَّم الحياة حيث تنتظرهم عظائمُ الأمور .

إن بين الحرية والعبودية صراعا قديما ، فإن الطائر لا يَرِفُّ بجناحه إلا إذا حطَّم قِشْرَ البيضة ، وإن الطفل لا يستقبل فضاء العالَم إلا إذا أسال الدم الأحمر .

كذلك نحن ، لا يمكننا أن نبـــدع إلا إذا حَطَّمنا ، ولا يمكننا أن نُحَطِّمَ إلا إذا ضحينا ، ولا نضحى إلا إذا عزَّت نفوسُنا ، ولا عِزَّة إلا فى ظلال الحرية ،

وَهَبتْ إرَادةُ السماء سباعَ الطير الحياةَ ، وأعطتها الجناح والمِخْلَب .

ووهبت الأسود الحياة ، فجهزتها بالناب والبُرْثُن .

ووهبتنا الحياة ، ووهبتنا معها العقل والقلب ، لنتصرف فى هذه الطبيعة مانشاء ونختار . وفى تصرف العقل والقلب القولُ الفصلُ فى توجيه الحياة ، وتـكوين نظام الاجتماع . والحرية لا تبسُط جناحيها إلاّ إذا نطق العقل ! ..

فإذا تحكم القلب ، ونطقت العاطفة لَعِبَتْ الشهوةُ بالنفوس وصارت الحرية تتأرجح فى صعود وهبوط ، وبرزت غرائز اللذات تَستظِلُّ بالحراب والبنادق ، كما تستظل

كواسرُ الطير وضوارى الوحوش بالمخالب والبراثن .

وإذا برزت غرائز اللذات ركد العقل .

والعقل الراكد عبدٌ ذليل ، والحرية لاتنبعث من فم العبد ، كما لايُستنبطُ الماء من الصخر الصلد .

أنت أيتها الحرية هبة الإله لآدم ، وآدم هو الكائن الحى الذى اختارته إرادةُ السماء ، ليكون خليفةً فى الأرض ، يفتح كنوزها ، ويفضح أسرارها .

وأنت والحياة طرفان متلازمان لاوجود لأحدهما إلاّ بوجود الآخر ، ولكنك أنتِ الطرف الثمين . أنت أثمن من الحياة ، ولا حياة إلاّ بك ! فى ظلالك يمشى العاقلون فى طليعة الشعوب ، يَفْصِلون فى شئونها ، ويقررون مصير حياتها ، ويملون إرادتَهم مع إرادات الامم الحرة .

أنتِ فضاء العقل فيك يبدع وينشىء ، وأنتِ سجنُ اللذات والشهوات . فى فضائك يَرْسف عبيد اللذة والشهوة بالسلاسل ، ويعشون بالأصفاد لأنهم لايستحقون الحياة .

وفى فضائك صراع عنيف بين اللذة الزائلة واللذة الخالدة

صراع بين العاطفة الجامحة وبين العقل المُتهادِى .

أنت مقياس الشخصية الحرة المبدعة ، فى ظلالك صراحة القول ، وإيضاح الحقائق ، والعبيدُ لا يصمدون للحقائق والصراحة .

اسمك السحرى يثل عروش الجبابرة ، ويفتح أحضانَ الطبيعة فتبتسم الحياة ، ويسود الأمن ، وَتَنْشُرُ الثقة ذَوائبها ، وتمشى المواهب المنشئة غُدُوا ورواحا ، تنهل من مناهل الكون ، تجددُ نشاط الحياة وتنشىء الأجيال .

لسنا صيداً مباحاً

أَجْمَعَتْ شرائع الأمم المتحضرة على القول : إن الإنسان سيد نفسه وإنه لن يكون صيداً مباحاً ، وإنه إذا كُتب في سجل الأمة ، وأصبح موطن الأمة موطِنَهُ في سمائه ومائه وَغَبْرائهِ ، عَصَمَ دَمَه وماله وعرضه .

وزادتِ الأمم على هذا أنها تَقِيهِ عوادىَ الزَّمَنِ من الفاقة والجهل والمرض ، وَتَكْفُلُهُ في عيش الأسْرَةِ وعزّ الأبد .

إنها لا تُجْلِسُه على الأرائك والفرش المرفوعة ، أو تنْزِلُ عليه مائدة ، أو تنشر بين يديه بِدَرَ الأموال ، ولكنها تفتح لدماغه وعضله سهول الوطن وحُزُونه وهواءه وماءه ومعاهد العلم والصناعة ، تعينه على إنتاج الأنفع وَتُهَيِّءُ له وسائل هذا الإنتاج .

وأفراد الأمة كلهم في ذلك سواسية كأسنان المشط ،

لافضل لأحد على أحد إلا بالإنتاج والإبداع ، وهذا هو معنى تكافؤ « الفرص » الذى تتسابق على تنفيذه أمم العالَمَيْنِ : القديم والحديث لإنشاء جيل جديد يعرف الإنسانية العليا ، ويفهم سر وجوده فى هذا العالم .

الأمة التى لاتعرف الشذوذ والطوارىء يعرف فيها الفردُ ثمن الحياة ومعنى الوطن . والأمة التى تعمل بالشذوذ وتحكم بالطوارىء يعصف بالفرد منها تقرير من جاسوس مأفون يرفعه إلى السلطات ، يصبغه تارة أحمر وأخرى أسود وتارة رماديا ، فيلقيه فى غياهب السجن تتلقفه أسواط الزبانية ، ويلقيه الوزير الطاغية فى المعتقل ، لايرعى قلب الأم الثكلى ، ولا قلب الأب النادب ، ولا ثُغَاء الأطفال الضعاف ، يتركهم يتضورون جوعا ، ويموتون كما تموت فيران المساجد .

يُتهَمُ الأب ، فيُحْكَم على الزوجة والأم والأب والأبناء ، وتسحق فى هذا الحكم شرائع الأرض والسماء .

يمشى الموظف الصغير هادىء البال مطمئن الضمير ، يروح ويغدو على أطفاله ، يصارع أمواج الحياة ، يضع يده

اليمنى على لقمة الخبز السوداء ، ويده اليسرى على قطعة الكساء ، ليملأ الجوف الطاوى ويكسو الجسد العارى ، وبجرة قلم من قلم الوزير الخطير المُدلِّ بقانونه ، يفصل هذا المنكود ، ويقع الحكم على الأسرة أجمعها ، فتقع الأسرة المنكودة فى حيرة الفاجعة ، لاتسعفها الدمعة ، ولا تنقذها الأَنَّة ؛ وتصبح هذه الجَماعة بين أنياب الدهر ، لايستندون إلى ضمان يكفل حياتَهم ، ولا إلى جمعية تُقَوِّم أَوَدَهُمْ وتسد رَمَقَهم ، ولا إلى نظام ينتظم جماعتهم ؛ فتبدو نَوَاجِذُ الشر وتطلع غرائز الإِحَنِ ويستولى اليأس ، واليأس كافر لايؤمن بأمة ولايعرف وطنا . يمشى هذا الشذوذ يجر ثوب خُيَلائهِ ، يهتك بيوت الأسر ويستبيح الأموال والقوت ، فتنقلب الحنطة الصفراء الملتهبة شعيرا أدكن ، والطحين الناعم حصا خشنا ، وأنثى البقر فحلا ذكرا ، ثم تترك هذه الخيرات بلادنا سافرة لاتقفها الحدود ، ولا تحول دون خروجها قوة ، وتصل إلى حيث يشاء الشذوذ ، وأنف الجياع والحفاة والعراة راغم[1] .

---

(١) تشير هذه العبارة إلى تهريب قوت الأمة إلى بلاد العدو بأسماء مستعارة .

ويتبختر سوط الطوارىء فى الشوارع والميادين ، فتكون أصوات الحرية عنده كلاماً محرماً ، وتوضيح الحقائق لغطاً وشغباً ، وإجماع الكتّاب على الرأى الصحيح إجماعاً على الفاسد .

وإنه هو المنقذ وهم المغتصبون ، وهو المصلح وهم المفسدون يبعث عسسه فى الهزيع الأخير من الليل ، يروعون العالِم بين دفاتره ومحابره ، والطالب فى مأمنه ، والرجل بين حضن أولاده وزوجه ، ويسدد رصاصه إلى الرءوس فتتساقط الحياة عَلَى غِلالة الحرية الحمراء تساقط العصافير برصاص الصياد على الرمضاء أعوزها الماء

هكذا يمشى الشذوذ والطورىء فى البلد السهل يداً بيد ، فلا يخلص فيه عزيز من البلاء ، ولا ينفع الذليلَ فيه النجاء .

وإذا مشى الشذوذُ فى بلد خَثَرتِ النفوس ، وإذا خثرت النفوس انفجرت الفوضى ، ونشأ فريقان لا توسط بينهما : فريق يَحْتَجِنُ المالَ والجاه والقوة أينما توجهه يسير ركاب الحظ معه . يقول للباطل كن حقاً . فيكون ، ويقول للحق

عُدْ باطلا فيعود ، لا تضبطه الشرائع ولا تحول دون مطامعه الحدود ، التهريب حق مشروع فى شريعته ، والرشوة قربان وفدية لكبريائه ومكانته ، واستباحة الأموال والدماء والأعراض صيد مباح فى نظمه وملته ، وفريق آخر حائر مضطرب ، يقلب طرفه فى الوجوه فيرى فيها أَنْيابَ الطمع وتغضن الجشع ، وكسب العيش تتلوى طرقه وتتشعب شعابه . . .

كلامه مردود ورزقه مقطوع أو محدود . ليس له فى الوطن شبر تقف رجله عليه ، ولا ملجأ يأوى أطفاله إليه . حقه مضاع وماله إن كان له مال مستباح ، ودمه إن أريق ليس له مطالب ، وعرضه إن نهش ليس له رادع ، يبعده الشذوذ عن مكانته وإن كان عنده علم الأرض والسماء ، ويضع فى مكانه آخر وإن كان يتخبط فى الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء .

هنا يقف المرء حائراً يقلب طرفه تارة فوق سطح الأرض وأخرى يرفعه إلى السماء ، ثم يهز رأسه وكتفه ويضرب يديه ويقول : لاحول ولا قوة إلا بالله : ربنا

ما لهؤلاء أضلونا السبيلا ؟ ؟ . . متى يقف هذا الشذوذ عند حدوده ؟ . .

متى يعصم المرء عرضه وماله ودمه ؟ متى يضمن العيش؟ لقد أفسد علينا هذا الشذوذ مجتمعنا وغير طباعنا وأخلاقنا . . العدل ، العدل . . المحاكم ، المحاكم .

لا يفصل موظف برأى عابر ، ولا يسجن شخص بأهواء القوة ، ولا يغتصب حق بسوط الطوارىء ولا يستباح بسيف الطاغوت . إننا نريد أن يكون للمحاكم وحدها القول الفصل ! .

إننا نريد أن نمسك بتلابيب الشرائع والقوانين ، إذا أعوزتنا القوة لنتخلص من سوط الظلم .

نريد أن نقول للظالم « إن فى العاصمة قضاة . كما قالت المرأة العجوز حين هم فردريك الكبير أن يأخذ رحاها فلم تقبل وقالت له : « إن فى برلين قضاة » .

لا نريد أن نكون صيداً مباحاً .

محمد ﷺ يعلمنا الحرية

هاهو ذا الفلك يدور دورته ، وهاهو ذا ركب العالم الإسلامى يقف بُرَيْهَةً ليعيد الذكرى فتنصت الأرض والسماء حين يفتح الخيال لا بَتَيْهِ فتمر سبيبة المشاهد تعرض ابن عبدالله واقفاً بين صحبه يَصْدَع بما يُؤْمر ، وصوته العظيم يملأ المسامع ويسير على متن الأثير إلى أرجاء العالم ليملأه إيماناً وإخلاصاً وعدلا ومساواة ، وهنا تتيه الجزيرة العربية على العالم وتختال مكة فتقول للأمم : « أيها الناس من هذه الرَّبْوَةِ انبعث صوتُ الإيمان ، ومن هذه الربوة أَشْرَبْنَا القلوب بالشرف والعزة ، ورفعنا الرءوس بالحميَّة وَالْأَنَفَةِ ، ومن هذه الربوة ، بعثناها شريعة وضاءة تنير القلوب ، وتوقظ العزائم من مكامنها ، لتتمرد على الجور والعبودية ، ومن هنا نقذف بالحق على الباطل فيدمَغُه فإذا هو زاهق .

كانت أمة العرب ، لها منظومها ومنثورها ، يفيضان على ألسنة شعرائها وخطبائها ، ولها صناديدها وأبطالها فى ميادين حروبها وأسواقها . تتفاخر فيها بقبائلها وبطونها ، ولها علماؤها فى علوم النجوم والأنواء ومهاب الرياح والكهانة والعيافة والقيافة والزجر والفراسة ، تتقوى بالعشير وتعتز بالعشيرة ، غير أنه لا يجمعها ناظم سياسى عام ، ولا يربطها رابط اجتماعى شامل ، ولا يوجهها موجِّهٌ دينى كامل .

والأمم فى نظمها الفطرية وعلومها الابتدائية مثلها مثلُ الشباب يكون مَشْبوبَ الإحساس قوى الشعور ، يترسمُ خطا الخيال ، فكان خيالها يصور لها آلهتها فى الكوكب المضىء والحجر الصلد . فكانت تجثو ركبها أمام مجاثم الأصنام وتسير أحلامها وراء الأوهام ؛ وفى هذا الالتباس الرابك والغموض المظلم ، حيث عيونها متعلقة بالأفلاك وأجسامها مرتبطة بالمَدَرِ والحجر . كان بين جنوبها قلوب تفيض بالشعور المطرز بالنبل ، وصفاء الطبع الذى مظهره شعرهم ونثرهم ، ولكن كان يحف ذلك كله العزةُ بالجاهلية الأولى

والشعورُ بالفردية ، وإيثارُ العشيرة المطلق فطفقت تُقَلِّبُ وجهها فى السماء والأرض ، تُنْشِدُ المكوِّنَ الأول ، وتَسْتَشْرفُ عيونها للظليم الرامح .

شاءت الإرادة العليا أن يكون سليل قريش هو المجتبى لتبديد هذه الحَيْرة ، والموجِّهَ الأول لهذه الأمة فأعطته مواهب التوجيه وأحاطته بالفصاحة والحكمة ، المتدثرة بالجلال والروعة .

فتحت العرب عيونها وآذانها ترى فتى قريش واقفاً على نَشَزٍ من وهاد مكة ، يقلب بصره فى السماء ، ويفتش بين سمع الأرض وبصرها عن عشيرته الأقربين ويقول : هأنذا هو الرائد الأول الذى تنشدونه ، وهأنذا المبدد الأول لهذه الحيرة التى أخذت عليكم أسماعكم وأبصاركم « أيها الناس إنَّ الرائدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَه ، وَاللهِ لو كَذَبْتُ الناسَ ما كَذَبْتُكُمْ ولو غَرَرْتُ النَّاسَ مَا غَرَرْتُكُمْ ، واللهِ الذى لا إله إلاهُو إنِّى لَرَسُولُ اللهِ إليكم حَقًّا وَإلى الناسِ كَافَّةً ، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كما تَنَامُونَ ، وَلَتُبْعَثُنَّ كما تَسْتَيْقِظونَ وَلَتُجْزَوُنَّ بالإِحْسَانِ

إِحْسَانًا . وبالشَّرِّ شَرًّا وَإِنها لَلْجَنَّة أَبَدًا أَوِ النَّارُ أَبَدًا وَإِنكُمْ لَأَوَّلَ مَنْ أُنْذِرَ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

كانت هذه الصيحة الحجرَ الأول فى بناء ذلك المجد العظيم الخالد ، واستطاع محمد فى هذه القولة الأولى أن يبعث الثقة فى نفوس الأمة ، والثقة إذا رَبَضَت فى مرابض القلوب تحقق الأمل والاطمئنان ؛ وهما يبعثان الشجاعة ، والشجاعة تبعث البذل والتضحية ، والبذل والتضحية يبعثان الإخاء العام والحب العام ، وهنا تموت الفردية والأثرة للعشيرة . ويعود الإيثار للأمة !

العقائد فى الأمم تهيئها الفطرة الأولى . أو يبلغها المصلح المرشد لتنير القلوب والأبصار ، ثم تظل هذه العقيدة تَهْدِى من اتبع ، حتى تقف بها القافلة بين عقول أخرى ، لا تجد فى هذه العقيدة ما ينفذ رغباتها ، فتبتدع وتضيف ، وتؤلف وتجمع حولها مثلما تجمع الطبيعة من الدغل والدخيل والحشرات حول الخميلة الْفَيْنَاء فتشوه جمالها وتطمس حسنها ، فتتعقد العقيدة وتستعصى مَسالكُها ، ويحل فيها الارتباك بعد الثبات ، والشك بعد اليقين . ولكن شتان بين الجنَّان

الذى يصل إلى الخميلة بالتشذيب واقتلاع العوسج ، و بين المصلح الذى يريد أن يحرر قاعدة أو يُعَبِّدَ مسلكا ، فإن الدغَل إذا إذا أُشِبَ فإنما يأشَب بأغصان الشجر ، ولكن العقيدة تمتزج بالدم ، وترتبط بالقلب ، وتتوشج بالعقل ، فلا تنتزع إلا مع الروح ، ولا تذهب إلا بتغير العقل .

***

اطمأنت الأمة للرائد الأول الذى أشعرها بثقة الوحدة ، ولكنها رُوِّعَت كما تروع الأوابد هاجمها الأسدُ الخادر حين علمت أن محمداً يريد أن يضع لهذه الفوضى الدينية ناظما تجتمع حوله الأمة فى صعيد واحد . فبعثت إليه عَريفَها ولكنه عاد من سِحر العبقرية ، و بيان النبوة ، واثقاً مطمئناً ، وهو يقول : « واللهِ لقد سمعت قولا ما سمعتُ مِثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالْكَهانة ولا بالسّحْر . يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وما هو فيه فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ .

فكان لهذه التعبئة النفسية ولهذا التوجيه الدينى

أن طفق الناس يدخلون فى دِينِ اللهِ أفواجاً ، وشرع أتباع محمد يَحُفُّونَ بالعبقرية والرائد الأول .

نجح محمد فى هذه التعبئة النفسية ، فكان مظهر ذلك أن تحول اتجاه الشعر العربى الذى هو ثروة الأمة ومادتها فى الإشادة بذكر العشيرة إلى الإشادة بذكر الأمة . وشرع الشاعر بدلا من أن يتغنى بذكر قبيلته يَذُبُّ ويدافع عن دين النبوة الجديدة . ونجح ابن عبد الله فى التوجيه الدينى ، فكفر العاكفون باللاتِ والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى .

تفتحت أسارير النبى لهذا النُّجْح الباهر ، وقال قد آن الأوان أن تحطم هذه الأصنام ، وأن تُبَدَّدَ تلك الأوهام ، وأن ترتبط وحدة هذه القلوب بوحدة الملك الدَّيان ، وأن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام « وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَولوا وُجوهَكم شَطْرَهُ » . هكذا تمت لمحمد عليه السلام المرحلة الأولى من مراحل الرسالة . تَخْرُجُ الزعامة من وادى عبقر مَحُوطةً بالحزم والصبر والشجاعة ، والحلم والكرم والعفو ، ولين الجانب والصدق والوفاء والحب ، وحِدَّة البَصر والفِراسة وعِظَمِ الهمة .

فإذا أرادتْ أن تسلك مسالك المجد مشَت وأُفقها أوسع من حدود ذاتها ، لأنها هى وحدها تنظر إلى السماء والأرض والحياةِ منظومةً فى حَلْقَةٍ مفرغة .

وأول ما تمحو مِن ألفاظ معاجمها كلمة « المستحيل » ، لأنها هى وحدها تعرف أنها تعيش فى عالم الإمكان ، وتنصب من إرادتها حاكماً عدلا على أعمالها ، فتَشُقُّ طريقها إلى قلوب الأتباع . فيجمعون على حبها ، وعلى الولاء والإخلاص لمبادئها .

* * *

قطعت عبقرية محمد هذا الطريق الوعر ، وطفقت ترتفع حتى وصلت إلى ذروة الجبل ، فوقفت على هذه الذروة تبسُط صفحة الحقائق الكامنة فى الأمة التى كانت تسترها الأوهام ، وفضحت مبطون الحياة فى التبشير والإنذار ، أنذرتْ فزهَّدَت ، وبَشَّرَتْ فحبَّبَت ، فبرزت تلك المواهب الكامنة فى قوى الشباب ، وتجاربِ الكهول واندفعت مثلما تندفع كتائبُ الجيوش ، هذه تفتح أسوار المدن وتلك تفتح مغاليق الحياة .

دار المؤمنون الصادقون بمحمد كما تدور الهالة بالقمر ،

فكان مثل الاثنين مثل الأب المكتمل ، يرى روحه فى أعمال أولاده ، وتنطبع عَلَى أساريرهم ، وهم يرون أرواحهم ترفرف بأجنحتها إلى العلو كلما سمعت روحَ هذا الأَب المكتمل .

هكذا انسكبت روح محمد فى جوانح الرّعيل الأَوّل من صحبه الميامين ، فالحزم يُنْطق أبا بكر حين ودع محمدٌ هذه الدنيا فيقول :

« أيها الناسُ مَن كان يعبُد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد اللهَ فإن اللهَ حىٌّ لايموت ، أيها الناس أَإن كثر أعداؤكم وقَلّ عَددُكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ ؟ والله ليَظهرنَّ هذا الدينُ عَلَى الأَديان كلها ولو كره المشركون.

أيها الناس والله لو أفردت فى جمعكم لجاهدتهم فى اللهِ حق جهادِه حتى أبلغ من نفسى عذراً أو أقتل مقتلا ، والله لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت باللهِ إنه خير معين .

***

والعدْلُ والتنظيم والحبُّ وسدَادُ الرأى ، كل أولئك يفيضُ فى روح أبى حَفْصٍ عمر ، وإذا به يحوط الأمة كما

يحوط قلب الأُم الرءوم وليدها ، فكان إذا رأى الشيخَ العاجز تمتد يده من الفقر دَفع به إلى بيت المال وقال : أعينوه فإننا لا نريد أن نكون قد استثمرنا شبابه وخذلناه عند الهرم .

وكتب إلى الأَمصار : « الله الله فى الرعية ، لا تستعبدوهم متى استعبدتمُ الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

* * *

وإذا بالشجاعة فى قلب أبى الحسن على تربض كما يربض الأسد الخادر ، وإذا بها تفيضُ عَلَى لسانه حين يرمى بولده فى ميدان الحرب ويقول له : « تزول الجبال ولا تزل ، عَضَّ عَلَى ناجِذك ، أعْرِ اللهَ جُمجمتَك ، تِدْ فى الأرض قدمك ، ارْمِ ببصرك أقصى القوم ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » .

* * *

وإذا بعثمان بن عفان يقفُ فى واقعة تبوك فيتفضل بألْف جمل وناقة ، ويخرج عن ماله وولده فى سبيل دين الله .

وقف محمد وقفته الأَخـــيرة ، يتلو عليهم آيات الله :

« اليومَ أَكملتُ لكم دِينَكم وَأَتممتُ عَليكم نعمتى ورضيتُ لكمُ الإسلامَ دِيناً » .

اطمأن محمد لهذا النجاح فنادى بأعلى صوته :

« أيها الناس إن الشيطان قد يَئِسَ أن يُعْبَدَ فى أرضكم هذه » .

هكذا عبأ محمد قومه بكتائب المثل العليا ، ثم رماهم فى وجه الدهر يُنْشِئون ويكونون ، فملأت دمشق بنى أميةَ فمَ الزمان ، وملأت بغدادُ بنى العباس مَسامِع الدهر ، وتاهتْ روابى الأندلس وخمائِلُها على العالم .

محمد ﷺ
يحطم أصنام الاستعباد

يفتح التاريخ فى كل عام صحائف القرن السادس ليعْرِضَ حوادث الإنشاء والتكوين ثم يبسط الخيال جناحيه، فيرتفعُ بنا عاليا يستشرفُ جموع الأنبياء وكتائب الأبطال، ويشير بإصبعه إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم واقفا على ثغور مكة يقول :

يا بن الوليد أدخل مكة من أسفلها ولا تقاتل أهلها، وألصق أنوف الأصنام بالرَّغام، كى يُجْتَثَّ عَوْسَجُ العبودية من مجامع الأضغان، فينبذ القوم شِرْكَ الأرض وعبوديتها، ويرتفعوا معنا إلى إيمان السماء، وتنطلق النفوس إلى فضاء الحرية. فإن سلاسل العبودية إذا تكسرت تحررت النفوس وإذا تحررت النفوس تنزه الفكر، وإذا تنزه الفكر شرع يستشرف خطط الإبداع، وإذا بانت خطط الإبداع ظهرت

المواهب الكامنة ، وإذا ظهرت المواهب الكامنة تحددت قِيَمُ الرجال .

هؤلاء الأنبياء المصلحون تجهزهم الإرادةُ العليا بنفوس نافذة تستكشف ما وراء الغيب ، وتصل إلى قرارة النفوس فتكسر الأغلال والسلاسل التى قيدتها .

إنهم يقفون على نَشَزٍ من الأرض يرقبون كيف تسير أراعيلُ الأمة ، وتموج جماعاتها وأفرادها ، فيعرفون الرعيل الذى يمشى وئيدا كأنه يحمل جَنْدَلا أو حديدا ، ويرون الرعيل الذى يمشى خَبَبًا والرعيل الذى يركض ركضا ، فيَهْمِزون الوئيد ويدفعون الخبب فتركض الأمة كلها سراعا ، وتتكتب كتائبها لتزحف إلى المجد من جميع نواحيه .

إن لتحطيم الأصنام فى رسالة محمد معنى ساميا ولتوحيد الإله معنى أسمى ، تبعثه الرسل الذين يريدون أن يخلقوا الأمم ويوحدوا شعورها ، فإن نفوس الأمم إذا ضَحَلَتْ التصقت أجسامها بالرغام ، وتاهت أحلامها بين جدران الأصنام ولاذت أسرابها فى ظلال القبور ، ونشأ المشعبذون والدجالون الذين

يأكلون السُّحْتَ بظلال هذه النفوس ويسمون رُغَاءَ قُطْعَانِ هذه النفوس بالرأى العام ، كما تسميهم هذه القطعان بقادة الرأى العام وبين هاتين التسميتين المجرمتين تضيع حقيقة الأمة . وتختفى كلمة « نحن » من الوجود . وتبرز مكانها كلمة « أنا » فى أنانية مطلقة وأثرة لا حدود لها ، ثم تمعن هذه الأنانية فى غلوائها حتى تتسلط على الحواس وتصبح جزءا من الإرادة ، فإذا وصلت الأمَّة إلى هـذه الحدود ارتبـكت موازينها ، واختلّت مقاييسها ، وأصبحت الرذيلة جزءً من عقيدتها ، وتحولت إلى عادات تأكل وتشرب بها ، وتشرع الأمة فى هذا الطور تصارع شياطين الصدف ، وهنا يتقدم الباطل والإفساد ويقولان : لنا كل شىء فى هـذا الوجود . فتحل الثرثرة مكان القول الفصل والوقاحة مكان الشجاعة ، والخيلاء والتـكبر مكان التواضع . وَتَتِيهُ أحلام الأمة تيه حلم السكران فتموج قطعانها بعضها فى بعض ، حتى تبعث إليها السماء نسمة من روح الله ، فينبت فى فضائها مصلح أو مرشد يَهُزُّ أحلامها ويرد إليها عقلها ، أو تنفعها أيام ذكرى مبدعها

ومكونها ، وتعرض عليها مشاهد المآثر والأمجاد لتهمس فى فى أذنها خطط الإبداع والتكوين . وهذه الذكرى هى ذكرى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتجدد فيها مجد تاريخنا كلما مر بنا يوم ميلاده .

حطم محمد أصنام مكة فنبتت أجنحة الفضيلة وأخذت ترف على وهاد مكة وبطاحها ، وشقت الإنسانية العليا طريقها وأصبح بصر الناظر من تلامذة محمد حديدا وقلبه مرهفا ، يشعر بشعور الجَحْفَلِ الذى يمشى معه ، يهتف بأفراحه وينقبض لآلامه ويقوى بقوته ، وطفقت النفوس تهتف بنشيد محمد صلى الله عليه وسلم : « إلى أعلى عليين ، إلى الأبرار والصديقين ، إلى الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون ، إلى هذا الغذاء السماوى » الذى يفتح العقول ويوسع فضاء الخيال للإبداع والتكوين .

ثم تلتفت هذه النفوس النشوى . فتسمع ألسنتها تنشد نشيد الإيثار والقوة والإبداع ، وإذا هى قوة تفرض على الفلك أن يدور حولها ، وعلى التاريخ أن يكتب لها ما تريد .

إذا ألْقَتْ العبودية عَصَاها فى أمة عَمِيَتْ هذه الأمة عن خَيْرِها وَشَرِّها ، وسارت فى حياتها كما تَسِيرُ قُطعان الضأنِ ، لا تسمع إلا رَنِينَ جَرَسِ الْكَبْشِ الأول ، عَيْنُهَا فى الأرض وَفَمُهَا فى منابت صِغَار الحشائش ، وَعَصا المُسْتَعْبِدِ فوقَ كَتِفِهِ يَهُشُّ بِهَا عَلَيْهَا كلما رأى انْحِرَافًا عن الْخُطَّةِ المرْسُومة لها فى حُدُودِ رَعْيِهَا .

إذا ألقت العبودية عصاها فى أمة صَدِئَتْ أفكارها كما يصدأ الحديد فى المكان الرطب ، وران على قلوبها ، وخمدَتْ جَذْوَة الفكر ، وبرد إحساسها وشعورها ومات ضميرها وتبدلت قوى العقل فيها بغرائز البطن ، وعادت حركاتها انعكاسية وأصبح التكالب فيها على إشباع الغرائز وطلعت رءوس الأنانية ، وبرزت الفردية الكلبية تنهش أموال الناس وأعراضهم .

هنا ينفع المصلح المرشد ، وَهنا تنفع الذكرى ، ذكرى الأمجاد ، وهنا يطلق الخيال جناحيه فيرى روح محمد صلى الله عليه وسلم على نَشَز من الأرض تقول : إيه أيها القائد أُمَّتَهُ

الرائدُ قومه ، حَطِّمْ قيود العبودية تتفتح لك أبواب الرشاد ، واجعل من نفسك قوة تجتمع حولك القوى، واصدع بالأمر مؤمنا تسمع نداءك الآذان ، ونَخَلَّ عن الأثرة يتقدم إليك الإيثار ، واصعد بنفسك إلى الذرى يَطِرْ وراءك القومُ بأجنحة الفضيلة . ازهد فى العظمة تُمْلِ على التاريخ صحائف الإكبار والإجلال ، حرر نفسك من أغلال العبودية فإن من أَنْعَمِ النِّعَمِ على المرءِ أن يكون حُرًّا . إن المرشد لن يستطيع أن يَصْدُق أهله إلا إذا كان مثلا أعلى ونمطا للإنسان الكامل ، وإنه لن يستطيع أن يطلب الإيثار ، والطمع والأثرة يشتبكان فى مجامع أضغانه ، إنه لن يقدر أن يطلب من الناس أن يصدقوه والكذب ممسك بخناق ضميره . إنه لن يقدر أن يفرض على الناس إكباره وإجلاله ونفسه تتيه فى خيلائها وتسدر فى غلوائها .

إن رعيلا يمشى رواده وطلائعه بالشعوذة والثرثرة واستغلال السذج وجمع الحطام وأكل السحت رعيل يمشى إلى واد سحيق . وكل أمة تمشى وراء مثل هذا

الرعيل أمة تخطو سراعا إلى الهاوية .

إن المبدعين تَهَبُهُمُ القدرةُ الإلهية قلوبا يشع منها نورٌ ينفذ إلى قلوب الأمة فيضيئها ، ويعطيهم عقولا يفتقون بها عقول الأمة ويفتحون أذهانها ، وتشيع فيهم عدلا يطبقون قواعده فيبعثون أخوتها ، وإرادة قوية يخلقون بها قوة الأمة وإرادتها ، وطبعا صافيا يطبعون به الأمة على الفضيلة .

هذه هى أخلاق الرسل والأنبياء ، وهى صفات القادة والمصلحين وهى هى صفات محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى ذكراه يتجدد فينا ربيع التاريخ ، وفى يوم ميلاده نَسْتَشْرِفُ الأمجاد ونَسْتَمِدُ العونَ على إنهاض الجيل .

الحرية والإبداع
بين الشرق والغرب

كلمة الشرق عَذْبَةٌ فى أفواه الغربيين ، فإذا ردّدها الشواب والشبان ذكروا مغانى بغداد وأيام الرشيد فيما عرفوه من قصص ألف ليلة وليلة ، وما أشبهها من القصص والحكايات التى مثلت لهم ثراء الشرق وَنَعيمَه . وإذا ذكرها الكهول والعلماء قالوا عنه : إنه موطن الرسل ومهبط الوحى ومعدن الشرائع ، وقرنوا بهذه الذكرى مدينة بابل (١) وجانب الطور الأيمن (٢) ، وثانى القبلتين (٣) وبطاح مكة والمدينة (٤) .

وكلما جمعتنا بهم المجامع وتجاذبنا أطراف الحديث كان مفتاح الكلام بيننا وبينهم هذا التُّراث الخالد الذى يفتح لا بتى الخيال ، فنرى كيف بعثها الآباء شرائع وهدايات أنارت القلوب وأيقظت النفوس وحركت الهمم ، وأطلقت الألسن بالحق

---

(١) إشارة إلى حمورابى (٢) شريعة موسى (٣) شريعة عيسى (٤) شريعة محمد .

أيام كان العالَمُ يَنُوءُ بأعباء الجهالة الجهلاء ، ويتخبط فى الضلالة العمياء .

ذلك ماض كنا نعيش به فى الغرب موفورى الكرامة ، لا نقرن به حاضراً ولا مستقبلا . فإذا كان التفاخر والتكاثر فى شىء بيننا وبينهم ، فإنما يكون بماضينا وحاضرهم ، فلنا من ماضينا ما نزهو به ، ولهم من حاضرهم ما يَتِيهُونَ به .

إنهم عرفوا نواميس الطبيعة فاشترعوا لها شرائع ، نظمت روابط هذه النواميس بمطالب الإنسان ، وجعلوا الإنسان وحده مدار هذا التنظيم ، واتخذوا من الفرد مبدءاً تسخر له قوى الطبيعة ، وتستثمر كي يَتَكَوَّنَ لِيُعِينَهُم على اكتمال هذا التسخير والاستثمار ، وكلما حالت بهم الأحوال وتقلبت الأعوام ابتدعوا له سنناً ومناهج ترافقه من سنى طفولته ، ترعى هذه الطفولة وتكون شَبابَه ، مبدؤهم فى ذلك « الفردُ للكُلِّ والكُلُّ للفرد » . والأسرة نواةُ الشعب والشعب حارس الأسرة ، فإذا اكتهل الفرد كان عضواً فى هذه المجموعة يزينها ويعينها ، وهو فى كل ذلك مرموق ، تترقب

المجموعة أعماله فتستبشر بخيرها وتنتقد شرها ، فإذا أدركته الشيخوخة وأوفى على الكبر اعتزلها معززاً مكرماً محفوظ الحق حتى يدخل حفرته . وإذا فارقها غض الإهاب تاركا وراءه صغاره غادرها مطمئن البال هادىء الضمير ، تاركا إياهم لعين ترعاهم ونظم تحفظ حقهم .

بمثل هذا الخيال الحلو الذى كان يسمو بنا إلى ماضى الآباء ، وبمثل هذه الحقائق التى كانت أمام أعيننا ، كنا نعيش فى ناحية محايدة[1] من نواحى الغرب أوجبت علينا ظروف هذه المحنة[2] البقاء فيها ، فلما تفتحت السبل تركناها إلى الشرق الجميل ، مراتع الصبا ومرقد الأجداد وموطن العشيرة ومحط الأمل وموضع العمل !! .

فلما ألقت السفينة على عتبة الشرق مَرْسَاها ، نزلنا على اسم الله بهذه البشرى ، ولكن ما كادت تترك أقدامُنا سُلّم الباخرة حتى فجأتنا معارك مَدَارُ رحاها رغيفُ الخبز .

فكان الانطباع الأول الذى أدركنا فيه أن هذه

---

(١) سويسرة (٢) الحرب العالمية الثانية .

الطبيعة الغنية التى يحسدنا عليها الغَرْبُ لا تزال قواها كانسة فى مكانسها ، بعيدة لا نعرف نظمها ، ولا نفهم قوانينها ، ولا تربطنا بها صلة . وأن الفرد الذى خُلق ليسخرها ويستغلها لا يزال فى المؤخرة يسحب ذيله كالذى يَتَخَبَّطُهُ الشيطان من المَسِّ ، لا يعرف الدنيا ولا الدنيا تعرفه ، يقع النظر على قطعان منه فى مختلف الأعمار ، يعبثون بالطبيعة والطبيعة تَسْخَرُ وَتَنْتَقِمُ منهم ، أكثرهم فى أجسام مُحَطَّمَةٍ موبوءة متدثرة بأطمار بالية منطوية على أنفس لَعِبَ الدهر بها ألاعِيبَهُ .

وأبرز خصائص هذه النفوس فقر مدقع ، وفقدان ثقة بهذا المحيط الذى لا يعرف الفرد ولا يحترمه . فالفرد الذى يستغل قوى الطبيعة فى الغرب ليس مثل الفرد الذى تُنْهِكُ الطبيعةُ قواه فى الشرق . ورب الأسرة التى يحفظها نظام الغرب ليس مثل رب الأُسرة التى تفككها الفوضى فى الشرق والعضلة والدماغ اللذان يبنيان الحياة فى الغرب مهملتان منبوذتان فى الشرق .

تفقد الأُسرة ربها فى الغرب فيحتضن المحيط أطفاله

ليحفظهم من العوادى ، ويتجه بهم الاتجاه الذى قَنَّنَتْهُ النظم وأوجبته الشرائع . وتفقد الأُسرة ربها فى الشرق فيترك أطفاله فى خِضَمِّ المحيط تسحقهم الأَوبئة والأَمراض : ويعضهم الجوع والبرد ، وتتلون طباعهم ، وتتغير نفوسهم على غرار ما ذكرت ، حتى يشبوا على الإجرام ، فإذا عرفهم المحيط عرفهم فى أحضان السجن وسلم عليهم بيد الحارس ، لا بيد المعلم ، وبيد المنتقم لا بيد المنعم .

يُنَشِّىء المحيط المهذب أسرته على قواعد الحرية واستقلال الرأى ، فتشيع فى جوانبها المحبة ، وتغمرها السعادة فيمتلىء البيت بالآمال ويطفح بالرجاء ، ويرتبط بالوطن الواسع ارتباط الحبيب المتيم بالمحبوب ، فيركض إلى ندائه ، ويلبى الصريخ الأول ، ويتجرد عن ذاته ويذوبُ فى هذه الدائرة لأنه يعلم أنه منها وإليها ، لن تتركه عند نزول الخطب بل تقاسمه الخير والشر ، فتكون ثقته فى هذا المحيط ثقة النبى بربه ، وينبت الفرد فى هذا البيت السعيد فيهديه إلى المحيط ، فيستقبله هذا المحيط بذراعيه ، فإذا مشى مع أستاذه فى مجامع العلم والصناعة مشى معه مثلما يمشى الطيرُ ضعيفُ الجناح مع أبويه ، حتى

إذا اشتدت عضلاته ونما ريشه تركاه يطير بجناحيه مستقلا معجبا بنفسه ، ينتقل من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى أخرى ، وإذا وقف إلى جانب رئيسه نظر إليه هذا الرئيس نظرة الوالد الشفيق إلى ولده العزيز ، يفتخر بمواهيه ، فينميها ويقويها ، فيدرج فى أحضان العزة والقوة ومضاء العزم وسناء الرأى ، ويرى وهو بعد فى سن الكهولة مظاهر فوزه فى فضاء هذه الحرية ، واستقلال شخصيته التى تسير به إلى رجولة مكتملة مظهرها الكرامة والأمل الحى والثقة بالنفس ، وهكذا تنشأ الأجيال جيلا بعد جيل ، وَيُخَلِّدُ الجيل الثانى مفاخر الجيل الأول ، شأن الغرب فى جميع نواحى العالم .

أما المحيط المرتبك فإن مثله مثل الغابة الغبياء تشتبك أصولها وَتَشْتَجِرُ فروعها فإذا نبتت صغارها حجبتها عن الشمس وظللتها بظلال مظلم ، فتشرع هذه الصغار تتلوى على الجذوع كى تصعد لترى وجه الشمس وتستذوق طعم الحياة .

فإذا نشأ الشاب فى مثل هذا المحيط وجد نفسه فى مثل هذه الغابة الغَبْيَاء ، فيطفق يتلوى لأن هذه الجذوع صلبة

لا تلين ومشتجرة لا تتفكك ، غير أنها ضعيفة الثقة بنفسها ، تخشى أن تنكسر إذا قويت بجانبها شجرة أخرى وهكذا ينشأ الجيل الجديد ضعيفا مَنْخُوبا ، تخمد بين جوانحه كل الغرائز الفاضلة فتذل نفسه ، وتتلوى تلوى العسلوج على الجذع الجبار ، ويشرع يعتمد على المحسوبية والمنسوبية ويركن إلى العشيرة والقبيلة شأن الجاهلية الأولى ، ويتخذ المشعوذين والدجالين عونا له على هذه الحياة القاسية ، فإذا تمكن من رغيف خبزه عض عليه بالنواجذ ، وأخذ يقسو على غيره بمثل ما وقعت القسوة عليه أو أشد .

* * *

وهكذا تشرع تتخبط قوى الأُمة ، وتنفصم عرى المحبة بهذه الدائرة التى تضم أفرادها ، وتضعف الثقة وتنام الهمة ويتوارى الناظم ، وينقرضُ الجيل ويخلفه جيل آخر ولكن لا يخلده ، بل كلما جاءت أمة لعنت أختها ، والسعيد السعيد فى هذا النشء الجديد من كان منبته على حافَّةِ هذه الغابة الشجراء ليرى وجه الشمس وحده ، ولكن واأسفاه لن

يستطيع أن يدخل هـذه الغابة المظلمة ليشذب عساليجها ويزكى أصولها ، فيظل يحترق بسناء شمسه ، وَيُحَرِّقُ الْأُرَّمَ حَسْرَةً على هذا الظلال الذاهب .

* * *

اللهم إنا تركنا هذا الشرق أعواما طوالا ، وكان الأمل الحى يشع فى نفوسنا ، ووضعنا أرجلنا على عتبته بعد هذه السنين والرجاء القوى لم يقبل أن يتراجع فمن أى المحيطين هو ، فإن كان من النوع الأول فأين مظاهره ؟ . . وإن كان من النوع الثانى فلن يُنْهِضَهُ من هذه الهوة إلا إيمان بحق الفرد ، واسْتِثْمَار قوته وتشريع متقن نافذ ، يحفظ الاسرة وتربية الفرد تربية تحمله على النظام والطاعة ، وتشيع فى نفسه الثقة ، وعدالة شاملة تحل المحبة محل التباغض والتحاسد والتنافر ، وتعبئة سياسية وعلمية واقتصادية يوجهها تَضَامُنٌ من الكهل المجرب والشاب الناشىء ، يكون فيها مظهرنا تَراصفَ الصفوف وتوحيدَ الجماعاتِ ، وهـذه لن يظفر فيها إلا فى ظلال الإخلاص والجرأة .

أزمة الحكم
فى ظلال الحرية وكهوف العبودية

تنام الأُمم الحيةُ مِلْءَ جفونها ليلةَ ينتقل الحكم فيها من حزب إلى حزب أو من جماعة إلى أخرى ، أو من فرد إلى فرد ، ويسهر الحاكمون من جراء هـذا الانتقال ، ويختصمون فى انتهاج السبيل الواضحة التى تمشى عليها أراعيلُ الأُمة ، ذلك لأَن دستور الحاكم والمحكوم دستور واضح ، مثل الوالى فيه من الأُمة كمثل الراعى من الرعية ، وتستأنف الأُمة أمورها يوم الانتقال وتُعِينُ على أنفسها ، لأَن الحاكم يضع نفسه للمجموع لا للفرد ، ورب فرد مسرور بقدومه سَيَبْتَئِس ورب مبتئس بقدومه سَيُسَرّ ، لأَن هذا الحاكم يسوس الجميع بسلطان الدستور وبعدل الله المقرر ، ولن يتم هذا إلا إذا كانت إرادة رئيس الحزب الذى أخذ الحكم بيده إرادةً حرة ، لا تعمل فيها إرادة الغير فتحوله إلى مُمثِّل ممسوخ من الممثلين ، الذين

يتقمصون الأدوار فيقسرون أنفسهم ، لتظهر ملامحهم بغير ما تنطوى عليه جوانحهم ، وهنا مواطن الإفساد وسوء الظن ، وانحلال الرابطة بين الحاكم والمحكوم ، فيعود الأمن خوفاً واليقين شكا ، ويبقى المبتئس على ابتئاسه ، وينعم المسرور بسروره ، ويضع مثل هذا الوالى عادة على وجهه قناعاً ذهباً ، حتى لا ينفذ الناس إلى أعماق قلبه ، فيروا فى قعره القواقع والضفادع والحيتان والأفاعى وبناتِ السرطان ، التى يطلقها على صيده متى أراد ، ينهش بها أعراضهم ، ويأخذ أموالهم ، ويُوقع بينهم العداوة والبغضاء ، فيخافه البرىء ، ويأمنه المسىء .

مثل هذه الوالى يَنْبُت فى منابت الأمم السادرة فى جهلها أو المغلوبة على أمرها ، التى ليس لها من إرادتها إلا اسمها ، وهذه الأمم تضطرب فى أعمالها وتَشْتَبِهُ أعلامُ طرقها ، فتضل السبل وتعمى حواسها « فتُنَعِّمُ »[1] كل نفى وتنفى كل « نعم » . فإذا قيل لها عن الماء النمير العذب إنه مِلْحٌ أُجَاجٌ ، قالت نعم ! ، وإن قيل لها إن خَبَثَ الحديد ذهب وهاج

---

(١) أى تقول نعم .

قالت : أجل ، وإن ساس قيادتها سائس خبل قالت : إنه محنك مجرب ! ، وإن طَبَّ عالل أبنائها بيطرى قالت إنه حكيم نطاسى ، وإن علم أولادها جاهل أبتر ، ومشعوذلَسِنٌ قالت إنه «بُرفيسور» أو نابغة من نوابغ الدهر وجنّ أُفْلِتَ من وادى عَبْقَر .

وهكذا تفسد تدابيرها ويأكل حِنْطَتَهَا شعيرها ، فتكون ضحكة الأُمم ومسخا من مسوخ الشعوب ، ويتبع ذلك فساد الطوية الذى يلازمه فساد الأعمال وتتغير التعاريف والمفاهيم ، ويصبح مفهوم الرشوة هبة أو عطية أو هدية . وتطلق لفظة السرقة على المهارة ، ويعود الكذب خدعة من الخدع المباحة فى الحروب .

وأمة تصل فى حالها إلى هذا المصير أمة وقاك الله شرها وحماك من بلاء العيش فيها .

أما الأُمم الحية فالولاية فيها عِبْءٌ ثقيل ، لأن فيها التعمير والإبداع والتكوين ، وفيها المثل العليا التى يتسع لها قلب الوالى الكفؤ الذى يقتعد مكانته بكفايته : وهل ينبت زعيم كامل إلا فى شعب حى الضمير ، له قلب وبصيرة ، والشعب

الحى الذى ينبت فيه مثل هذا الوالى تكون مقاييسه واضحة الحدود لا تطيش الكفة الراجحة ولا يَتَقَلّصُ الذراع الوافى بل تتعادل كفة بكفة وتوازى ذراع ذراعاً أخرى .

ويطيش الخفيف ويرجح الثقيل ، ويُقْدِمُ على الأعمال كَمَلَةُ الرجال ، ويختار للمناصب فَوَقَةُ المثقفين الصالحين الذين كونوا أنفسهم لأعمالهم ، وعينت مناصب هذه الأعمال لهم .

وهنا تسمو مجموعة الأُمة وسمو المجموعة معناه اتساع أفق الحرية ، وفسحة الأمل فى فضاء الأُمة ، والأُمة التى يتعانق فى فضائها الأمل والحرية تمتلىء بالإبداع والتكوين ، وتتوج المثل العليا أفعالها وأقوالها وتصفو سرائرها وظواهرها ، فتزول فوارق الحسد فيها وتحل محلها مجامعُ الغِبْطَةِ ، ويأخذ التنافر فى الإنشاء مكان التزاحم فى التدمير ، وتصبح الأنانية الفردية أثراً من الآثار القديمة ، تنظر إليها العيون شزراً ، ويعانق الفرد أخاه على اسم الله والوطن ؛ وعلى هذا النمط تتكون المجموعة الديمقراطية فى كل شعب يحب نسيم الحرية ؛ ويطمع إلى الإبداع فى عالم البشرية . ! . . .

توزيع الثروة

بين يدى الحرية والعدل

ويجب توزيع مغانم البلد ومغارمه على أبنائه
بعدل لئلا ينشأ الألم والحسرة فى جهة
والطغيان والجشع فى جهة أخرى(١) .

فى منتصف القرن الثامن عشر عرض المجمع العلمى فى ديجون مسألة للكتاب ، طلب منهم فيها أن يشرحوا أصول عدم المساواة بين الناس وسألهم فيها : « هل يرضى القانون الطبيعى بعدم المساواة ؟ ؟ . . » .

فكان « جان جاك روسو » أسبق الكتاب إلى هذه الإجابة ، وقرر فى جوابه بعد أن وصف أحوال الأمم فى العصور الخالية وصفا خياليا ، تناول فيه سعادتهم فى ظل الجهالة وهم يفترشون أحضان الطبيعة ، وأثبت فيه أن الحضارة سبب هذا الشقاء الذى يتقلب فيه بنو الإنسان ، قال :

---

(١) مقتبس من خطاب العرش الذى ألقاه سمو وصى العراق المعظم فى عام ١٩٤٦ عند افتتاح المجلس النيابى .

« إن كل ثروة يحتفظ بها الفرد هى جناية على الإنسانية وذُلٌّ لغيره من أبناء جنسه .

لقد كان « روسو » عادلا كل العدل فى حكمه على الطبيعة ، ولكنه قسا كل القسوة على الحضارة فإن الحضارة ما كانت يوما ما مبعثا لشقاء الإنسان، إلا إذا سَخِرَ هذا الإنسان بالمبادىء الخلقية ، وعبث بالحقائق الاجتماعية والنظم السماوية ، وأصبحت مصالح الإنسان مشروعة ، إذ سادتها القوة ، وعادت القوانين والنظم لا تُشرّع إلا لمصلحة فرد فى نفسه منقطع فى فى هذه المصلحة عن المجموع .

فى مثل هذه الحالة تسود الفوضى ، ويركب الفرد رأسه ويختار فى سيره من الأساليب والطرق ما يكفل رغباتِه وحاجاته ، ويقرر ما توحيه إليه مصلحته ، عند ذلك تصبح الحضارة جحيما تأجج نيرانه ويتناثر حممه . ؟

سبقت سهول الرافدين جميع الأمم فى الحضارة وكانت شريعة حمورابى — نابغة هذا السهول — أولى شرائع الأمم إذا تصفحتها بهرك ما تدل عليه موادها من توزيع عادل متقن

ومن ضمان مؤكد لهذا التوزيع ، فإن الجندى والشرطى والموظف ، يتمتع كل منهم ببيت وبستان وحقل لم تمتد إلى حجزها أيدى المرابين ، ولن تمتلكها ديون الدائنين ومن سولت إليه نفسه فى انتزاع مثل هذه الملكية من مالكها بغير حق كان عقابه الإعدام حَرْقا أو غرْقا أو ذبحا .

لقد كان أفق المشرع فى هذا واسعا ورأيه مصيبا ، فإن هذه الطبقة من الناس يكون رزقهم محدودا على خلاف ماعليه المتاجرون والمزارعون وهـذه الشريعة على بساطتها وضيق موادها أمنت استغلال هذه الثروة الطبيعية تأمينا وتقرأ فى ثناياها نوعا من الاهتمام بشئون الفرد فى نطاق المجموع ، وهو نوع من الحضارة عند الأمم الخالية ، يجد روسو فيه العدلَ الطبيعى .

فإذا حادت الأمم عن التشريع ، واستهزأت بحقوق الفرد ، شاع الظلم فى أرجائها وتحكمت القوة ، وساد الاستبداد الذى يكون مبدأ الانهيار .

ويحدثنا تاريخ العرب أن عمر بن الخطاب دون دواوين

الإحصاء ، وكتب الناس على منازلهم ، وكان ينزل بنفسه مواطن القبائل فلا تغيب عنه بكر ولا ثيب ، ويعطيهن فى أيديهن ، ويقول : « واللهِ مَا مِنْ أحدٍ إلا له فى هذا المال حق أُعْطيه أو مُنِعَه ، وما أحَدٌ أحقُّ مِنْ أحدٍ إلا عبدٌ مملوكٌ ، وما أَنَا فيهم إلا كأَحَدِهم ، وَلـكِنَّنَا عَلَى مَنَازِلنا مِنْ كِتَابِ اللهِ وقسمنا مِنْ رَسُولِ اللهِ والرجُلُ وَبَلاَؤُه فِى الإِسْلاَم ، وَالرَّجُلُ وقِدَمُه فى الإسلام ، والرجل وَغِنَاؤه فى الإسلام والرجل وحَاجَتُهُ ، وَاللهِ لئن بَقِيْتُ ليأتِيَنَّ الراعىَ بجبل صَنْعَاءَ حَظُّهُ مِنْ هذا المالِ وهو فى مكانه » .

* * *

لم يقرأ حمورابى مذاهب العصر الحديث ، ولا تخرج عمر بن الخطاب فى جامعة من جامعات أوربا ولـكنه العدل ، هو هو ، لم يتغير بل يَنْحَدِرُ فى أصلاب الأمم جيلا بعد جيل . حَتَّى يَصْطَدِمُ بِصَخْرَةِ الاستبداد العاتية ، أو تتلقفه أمواج الجشع الطاغية فتلقيه فى عَرَاء سحيق ، ثم يُهَيِّئ الله له رُسُلَ الإصلاح فيأخذوا بيديه ، فإذا رافق العدل شعور بالإخاء ،

وأصبح الفرد ابنا للمجموعة التي يعيش فيها ، وشمل هذا الشعور ابن القرية فى قريته ، ورجل الناحية فى ناحيته ، كانت الأمة أسرة واحدة تظللها سماء الوطن وتقلها غَبْرَاؤُه . وهذه أيضاً مثل من أمثلة الحضارة ، لو وفق الله روسو لقراءته لكان له رأى فى الحضارة غير رأيه هذا .

***

إننا إذا بحثنا فى توزيع الثروة فإننا لا نريد أن يكون المثل فى ذلك مثل ما فعل الخليفة المأمون حين تزوج بوران بنت الحسن ، فوزع بِدَرَ الذهب على المحتفلين ، ونثر عليهم كرات المِسْكِ ، وفى كل كرة قصاصة ورق مكتوب فيها اسم ضيعة أو جارية ، أو حصان يأخذها من تقع بيده . فإن مثل هذا التوزيع نوع لا تقبله شريعة ولا يقره عدل .

ولا نريد أن يكون التوزيع أن تستولى الدولة على أموال المجدودين (١) فتنثرها على رءوس المحدودين (٢) . بل نريد تشريعاً منبعثاً من تقاليدنا وعاداتنا وبيئتنا اللاتى لم تفسدها الطوارئ

(١) الأغنياء . (٢) الفقراء .

فإننا مهما فعلنا لا نستطيع أن نلبس ثوباً يفصله غيرنا .

إنك تجد الفرد السويسرى سعيداً فى تشريعه وفى نظامه يحف به أطفاله كما تحف الزهور بالغصن ، وقد يكون كذلك الفرنسى والبلجيكى والهولندى والدينماركي والإنكليزى والروسى والألمانى . . الخ .

وكل شعب من هذه الشعوب له نظامه الخاص الذى يكفل له نوع التوزيع ، وهى لا تخضع لغير ما توحيه إليها بيئتها وطبيعة أرضها ، وتجد فى الأثواب التى تلبسها الأمم غيرها إنها لا تلائمها ، فقد تكون فَضْفَاضَة وقد تكون ضيقة ، ومهما تنابزت أحزابها وتخاصمت جماعاتها فإنها تبقى خاضعة لهذه النظم التى أملتها عليها طبيعة أرضها والتى يتوجها العدل .

إن سهولنا تختال بثروة طبيعية ، تغبطها عليها كثير من الأمم ، وهذه الثروة منها ما هو فى متناول أيدينا ، ومنها ما هو خارج عنها . وما هو فى متناول اليد مبعثر هنا وهناك ، تسطو على قسم منها بين الفينة والفينة جماعات تساعدها

مراكزها ونفوذها ، فتقتسمها بينها وتَحْتَجِنُها لنفسها ، وتبقى جماعات أخرى فى المقعد القصىّ ، ومن هنا ينبعث الجور ويتركز الثراء والنعيم فى ناحية ، والفقر والشقاء فى أخرى ، فتقع عينك على فرد يملك عشرة منازل ، وعلى آخر لا يملك موضع قدم ، وآخر تتكدس له فى الخزائن والبنوك ودائع الذهب والصكوك يتصرف فيها كيف يشاء ويختار ، وآخر يطوى الليل والنهار وراء الفَلْسِ[1] والفلس يهرب منه ، وهنا ينشأ الألم والحسرة فى جهة ، والطغيان والجشع فى جهة أخرى ، وهنا يحق للكاتب روسو أن ينعت الحضارة بالجحيم المتأجج ، ولكنى أعتقد أن روسو يقف خاشع الطرف ، رافعاً قبعته أمام الدولة التى توزع أراضيها « الأميرية » توزيعاً عادلا ، وتضع نظاماً تشريعياً يشمل الفرد فى قريته وفى بلده ، دون أن تصطدم بنظام هذا الإقطاع البغيض الذى ينهار من نفسه عند ما تبدأ تشتغل العضلة لنفسها ، وتشرع تنتج للأسرة التى ترعاها ، فإن قوة العضلة مغلولة للإقطاعين الذين ينعمون بهذا الثراء الفاحش .

---

(١) الفلس عملة عراقية قريبة من « المليم » .

ويحق للكاتب روسو أن يقول إن كل ثروة يحتفظ بها الفرد جناية على الإنسانية وذلة لغيره من أبناء جنسه ، إذا رأى أمة بلغت بها مشكلة المنازل الزبى وجاوز فيها الحزام الطبيين ، ورأى أفراد هذه الأمة ، إما مثْرٍ ينعم فى قَصْرٍ وثير ويقضى رحلة الشتاء فى قصر ورحلة الصيف فى آخر ، وإما فقير مدقع يهيم فى العراء ، أو يسكن كوخا فتكت به الأوبئة وإما لاجىء يتكدس مع غيره مثلما تتكدس قطع السمك فى علب « السردين » ، أو مستأجر يتحكم المؤجر فيه كيفما يريد ، ولكن روسو يقف موقف الإجلال عندما يرى الدولة تبدأ تحل مشكلة المنازل فتنشىء شركة ، أو تستدعى شركة تقوم بإعداد المنازل على غرار ما تقوم به الأمم ذات العزة فى حل هذه المعضلة ، وتكون غايتها انتقال هذه المنازل بقيمة الإيجار إلى الساكن وهكذا يرى الملاكون أنفسهم أمام الأمر الواقع ، ويشرعون يتخلصون من تعداد أملاكهم لتنتقل إلى أفراد الأمة الواحد تلو الآخر .

وماذا يقول روسو عندما يرى تجارة أمة تتناهبها أيدى

الفوضى ، ويشيع الجشع فى جوانبها ، وتسير فى طريق أشبه بالسرقة منها بالمعاملة ، فإن المشترى ينهب فى وضح النهار ، وضريبة الدولة فى هذا الجانب من ثروة الأمة لا تعرف لها مدخلا ولا مخرجا ، والتاجر فيها ينعم ويثرى على حساب المشـــترى المخدوع ، وأعتقد أن روسو يبجل الحضارة ويشيد بذكرها عندما يرى الدولة تفرض نظام إمساك الدفاتر على كل بائع وبائعة ، وتضع السعر على كل بضاعة فتحفظ حقها وضريبتها التى تعمر الأرض وتحضر البلاد ، وتقلم أظفار الجشع الفاحش ، وتعرف صادرها ووارداها . ولماذا لا يفرح روسو بالحضارة إذا التفتت الدولة إلى أفرادها فاستأصلت البطالة وآوت العجزة ، ونشرت وسائل الصحة وحفظت الشيخوخة من الذلة .

ورأت فى توزيع الثروة على موظفيها أن تتخذ عمل الرجل وبلاءه وقدمه وحاجته التى يبعثها عدد أسرته أساسا للتوزيع !!.

اللهم إننا نريد أن نبعثها « عمرية »[1] متوجة بالعدل

---

(١) نسبة إلى عمر رضى الله عنه .

مقرونة بالإحصاء الدقيق ، مبعثها شرائعنا ونظمنا ومثلنا العليا فى أخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا ، وما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا .

على مثل هذا الغرار نريد توزيع الثروة وتقليم أظفار هذا الجشع ! ! والقضاء على نظام الإقطاع .

عراك الأحزاب
فى ظلال الحرية

إذا أصبحت الأمم فى دهر عنود وزمن شديد ، أو إذا عاشت فيها الفوضى وَعفا العدل ، أو انحل الناظم ، فزلت قدمها عن طريقها السوى ، مالت نفوسها وتطلعت الرءوس ، واستشربت العيون ، تنتظر الرائد المحنك ! .

بمثل هذه الظواهر التى تتقدم وجوب الإصلاح تمتلىء صحائف الكتب ، وَتَنْتَفِخُ بطون التاريخ ، شاعت مثل هذه الظواهر فى بلاد العرب قبل مبعث النبوة إذ رَبَكَتْهُمْ الفوضى ، وشرع عقلاء القوم ينظرون فيما هم عليه من الضلالة والجهالة ، وطفقوا يسفهون أحلام قومهم ، ويعيبون أصنامهم توطئة لمقدم العبقرى المنقذ الذى لا يفرى أحد فريه .

بمثل هذا تطفح الصحف ، وعن مثل هـذا الحادث يتمخض الرأى العام فى عصرنا هذا .

ويتحدث عقلاء القوم يسفهون هذا الوضع ، ويعيبون هذا الشذوذ ، ويتشاورون فى الأمر ، ويجتمعون بهذا ، ويكلمون ذاك ، يرغبون ويعدون . كل هذه الحركة توطئة لاندفاع الأحزاب ، وانتظار القائد المنقذ ، فأى الأحزاب نريد ؟ . . وأى منقذ ننتظر ؟ . .

تنشأ الأحزاب عند الأمم المنظمة لتحقيق فكرة ، أو انتصار لرأى ، وتتطاحن فيما بينها فى سبيل تخليد الشعب ، وحفظه من العَوَادِى ، ورفع مستوى معيشته ورفاهيته ، وتركيز قواعد العدل بين أفراده ، لإنشاء جبل ممتاز ، وتكون هذه الأحزاب مدرسة عليا تُنْشىء فى أحضانها عباقرة السياسة والخطباء اللُّسُن ، الذين يكونون فى الطليعة عند اشتداد معارك الحياة .

مثل هذا الطراز من الحزبية ، حقل تنمو فيه مواهب الأفراد المختارين ، الذين مثلهم كمثل الفراشة تدل الناظر على النور فتحترق .

تتطاحن أحزاب الأمم ذات الشوكة والعزة والنظم

المركزة فى هذا العصر فى معركة تدور رحاها حول تسوية المشكلات التى ولدتها هذه الحرب الضروس ، والفوز فيها لمن له الحول والقوة فى ضبط الموازنة بين قوى الشعب ، بين العضلة الإنسانية وبين دولاب الحديد ؛ بين نتاج الطبيعة وبين مداخن المصانع .

وقد رأينا أحزاباً اتخذت الفرد أساساً لنضالها ، ومركزاً تدور حوله جميع مكوناته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ووضعت مناهجها على توجيه هذه المكونات التى تنتهى إلى إيصال الأمة إلى المحل الرفيع بين مقاعد الأمم

وعند بعض الدول التى يشيع العدل الاجتماعى بين أفرادها ، وتستند إلى تشريع متقن تكون مهمة الأحزاب فيها تتميم مكارم الأمة ، وتدور رحى المعارك فيها حول بُلَهْنِيةِ العيش والترفيه عن حياة الفرد ، مثل خفض ضريبة أو رفعها فى صالح الأمة ؛ مثل إنشاء المصانع وفتح الطرق ، أو بناء المساكن الصحية للإيواء عند ازدياد السكان وما يشبه ذلك !!!

هكذا تمشى الأحزاب الرَّصِينة بين ناظريها منهج تريد

تحقيقه وتجعله هدفها الأول ، فإذا جاءتها المناصب اتخذتها وسيلة للتحقيق ، فإن لم تنجح تركت ميدان العمل لغيرها راضية مطمئنة .

أما الأمم الضعيفة التى يتأرجح تشريعها بين قوى الأهواء ، ولا تستند نظمها إلى أساس ثابت ، وتغمر الأمية طبقاتها . ويكون نتاج الفرد فيها نهباً مقسما ، أو عرضة لرحمة الطبيعة وقسوتها . ويتحكم الفقر فى أرجائها ، وتسودها البطالة وتتكدس فى (مقاهيها) وشوارعها قطعان البشر ، وتفتك فى بيوتها (إن صح أن لها بيوتاً) الأوبئة .

مثل هذه الأمم تفوز فيها الشعوذة والدجل ، وتستعبدها التعاويذ والتمائم والتقاليد الطارئة .

وفى مثل هذه الأمم تكون طرق الأحزاب مملوءة بالحسك والعوسج ، ويكون تنافسها فى اختيار الناحية التى تبتدىء بها وتأخذ على عائقها صلاح فسادها ، وتكون هذه الأحزاب على نوعين لا ثالث لهما ، إما أن تصطدم بهذه الصخرة العاتية ، فَتَرْتَدَّ خاسئة الطرف ، وإما أن يكون

تنافسها فى الوصول إلى منصب فيكون سلاحها فى ذلك التنابز بالألقاب وَتَسْفِيهَ الأحلام والكيد والختل فى تحطيم منافسها وتنتهى فى كل مناهجها إلى هذا المنصب المتمايل ، وتقتصر فى عملها على حل ما وثقه سلفها فى تقريب هذا وإبعاد ذاك ، كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا .

ومن هنا يبدأ الانحلال فى الأدوات والآلات التى تتركب منها « ماكينة » الدولة التى تدير دولابها مثل هذه الأحزاب ، وهنا يصبح الفرد الذى ينتمى إلى هذه الأحزاب ، والذى تريد اختياره لتوجيه الجماعات ضحية للجشع الذى يتحكم فيه ، والضعف الذى يستولى على نفسه ، ويجعل كل مافى تكوين حياته خاضعا لهذه المنسوبية التى تشيع فيه ذلة النفس ، عند هذا تشرع تنخزل أسراب جماعات الأمة كما تنخزل أسراب الضباء هاجَمَتْهَا الذئاب ، ولكن قد يبعث الله لمثل هذه الأمة نفحة سماوية ، فتنبت فى أحضانها جماعة يمحون الذات ، ويكونون الفداء الأول فى سبيل تخليد جيلهم وتركيز حياتهم المبعثرة ، وتندفع هذه الجماهير من صيحة هذه

الأفئدة المؤمنة تترسم خطاها فى الفداء ، وتمشى على هداها فى الإيمان .

هنا تكون الأحزاب مدرسة تُحَرِّرُ الأفكار من الأوهام وهنا تتربى الإرادة وتبرز المواهب من مكانها ، وتقوى النفوس وتطمئن إلى جانب العزة ، وإذا قويت النفوس ضمنت تراصف الصفوف ؛ هنا يكون التنافس فى سبيل الخلود الدائم ، لا فى سبيل اللذة العابرة ، لمثل هذه الأحزاب يجب أن يتمخض الرأى العام وينتظر الرائد الأول الذى لا يكذب أهله .

الجامعات الحرة
تخلق الرجال وتنشئ الأجيال

فى جامعة من جامعات أوربا[1] وقف أستاذ علم النفس فى فاتحة الفصل الدراسى ، وبعد أن توسم وجوه الشباب قال : « إن الأمر الذى تهتم به جامعاتنا هو تكوين الرجال وتوزيعهم على نواحى الحياة ليبلغوا رسالتنا ويتمموا مكارم مناهجنا ، فإن الإرادة العليا شاءت أن يكون هذا الكائن الإنسانى صفوة بين الكائنات ، وشاءت أن تخضع له قوى الطبيعة ، يَسْتَذِلُّ متونها ويستثمر بطونها ، فهيأت له مواهب الإنشاء والتكوين . ووظيفة الجامعة استثمار هذه المواهب ، وتوجيهها توجيها ينشىء لها جيلا جديدا يخلف الجيل السابق ويضع قواعد الإنشاء للجيل المنتظر فأنتم خلفاؤنا ، فَلْنُحْسِنِ التوجيه كى تحسنوا العمل والتبليغ » .

---

(١) جامعة بازل فى سويسرة .

إن هذا القول لم يلق على عواهنه ، فإنك لو استطعت أن تعيش بين طبقات هؤلاء الناس حينا الدهر ، وشرعت تتعرف طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وأهدافَهم فى فى الحياة لوجدتها حلقةً مَفْرَغَةً ، تبدأ فى البيت وتنتهى فى الجامعة ، حيث تتصل فى البيت .

فإذا سألت المرأة الولود . لمَ هذه الكثرة فى الأولاد ؟. أجابتك إن الأمة تحتاج إلى الرجال . وإذا سألت الشواب والشبان : لم هذا الجهد المتواصل ؟ . . أجابوك إن الحياة صراع دائم ، وأن الزمن سيف قاطع ، إن لم نقطعه قطعنا . وإذا سألت الرجل الكهل المجرب لم هذا الحرص ؟ . . . قال لك إن المرء حديثُ بَعْدَهُ ، وإن الأمة سلمتنى رسالة لأبلغها ، ولن يهدأ لى بال حتى أعرف من ذا الذى يتناولها ؟ . فإن المجد كل المجد أن نُنَشِّىءَ الشواب والشبان على استلام هذه الرسالة ، ولن نُسَلِّمَهَا لهم عرجاء أو مفلوجة .

تسيطر الجامعة على البيت لأن أبناءها فى هذا البيت ، وتسيطر على المدرسة الابتدائية ، لأن أحفادها فى المدرسة ،

وتسيطر على المدارس الإعدادية لأن فتيانها فى هذه الإعدادية .

فإذا استقبلتهم فإنها تستقبلهم لِلْإِنْضِاج ، وفى إنضاجها هذا تصطفى من أساليب التربية أحدثها ، فتضع لكل فريق من أبنائها مجموعة من مواد العلوم مترابطة ، متكاملة ، ترى فيها المفتاح الأول الذى تسلمه لهذا الفريق ، كى يفتح به أبواب الحياة ، إذا ترك أبواب الجامعة ، وهى لا تقيس هذا الإنضاج بطول الزمن أو قصره ، إنما تقيسه بإنتاج الأحلام والعقول !

إن مَثَلَ الجامعة للفتى مَثَلُ العش للطائر ، ينبت فيه ريشه ويتكامل هيكله ، وفى المحيط تشتد عضلته وينبسط جناحه ، وإلى كل ذلك تضيف الجامعة تقاليدها الموروثة ونظمها المنحدرة فى أصلاب الأجيال ، تلائمها مع أحدث النظريات كى تحتفظ بطابعها الخاص بها ، وشكلها الذى درجت عليه .

هكذا تُنْشِىء الأمم الحياةَ وتبنى ، وهكذا ينزل الفتيانُ إلى ميادين هذه الحياة . الصانعُ إلى مصنعه ، والعالم إلى مكتبه ، والسياسى إلى حزبه ومجالسه النيابية . فإذا احتضن المصنع هذا الصانع ، أو قعد العالم فى مكتبه ، وجد هذا المكتب وذاك

المصنع جميع مواهب هذه الشخصية مهذبة موجهة . تشق طرق الحياة وَتَفْتَرِعُ صعاب المشكلات .

وإذا نزل الفتيان منازل السياسة ، وانفتح لهم ذراع الحزب ، وجدوا طرازاً جديداً من التعليم والتدريب فى نطاق الحزب ، تسعفهم نظرياتهم التى تدور فى مخيلتهم ، وتكون أسساً يرتكز عليها بناء الدولة واتجاه الأمة ! فينتشرون فى لجان الحزب يبحثون ، ويدرسون ويتعلمون ، ويقلدون ! فيتم هذا الإنضاج السياسى ذلك الإنضاج الجامعى ، وهنا تظهر الرجولة وتعيِّنُ الزَّعامَةُ مقعدها الذى تقعد فيه ، ويشرع الرائد يصطفى من بين هذه المواهب رجاله الذين يشدون الأزر ويديرون دفة السياسة .

* * *

لم يكن هذا النظام التكوينى فى هذه الأمم الحديثة بدعة ابتدعوها ، وإنما هو إرث اجتماعى عرفه الإنسان الأول ، ثم أخذ ينحدر فى منحدرات الأجيال جيلا بعد جيل ، تأخذه الأيدى وتتعاوره النظريات ، ويشذ به العلم ويهذبه التدريب ، ويسمو به العقلُ وتوافق به الأمم تطورها وتطور من حولها .

حسبك أن تلتفت وراءك ، فإذا وقعت عينك على مظان التاريخ للأمم الخالية وجدت الإرادة العليا قد هيأت لهذا الإنسان مواهب الإنشاء والتكوين منذ الفطرة الأولى ، ثم تركته فى العراء وعلى سواحل اليم ، يخترع ويبتدع ، يقف ويتطور إلى أن فتح عينيه ، فإذا به ربُّ أسرة ، ثم رب العشيرة ، ثم رجل الدولة .

أخذ المحيط يملى عليه لزوميات العيش ، ووجائب الحياة ، فكان له حضن الأم ، وذراع الأب المخرج الأول لمجابهة شدائد الطبيعة وقسوتها ، فلما تعقدت عليه حياته ، واشتبكت أموره ، احتضنته العشيرة ليكون لها الساعد عند نزول الحوادث . ثم اتسع نطاق العشيرة بطوناً وقبائل ، وتحددت فيها المنازل والمواطن ، فنزل الفرد رجلا للأمة ينظم روابطها ، ويحمى ثغورها على حسب ما تمليه عليه تلك الفطرة .

ثم انفتح أمامه عالم الطبيعة الواسع ، فإذا به خلاب ملىء بالأسرار ، يثير الدهشة ويبعث الإعجاب ، ثم انبسط أمامه هذا الحسن فى السماء المصحية والحياة الصافية والظل الظليل ،

والنسيم الهادىء ، والشمس الوهاجة ، والمروج النضرة . وفتح عينيه على قسوة هذا العالم ، فارتاع من العواصف الجائحة ، والرياح الصرصر العاتية ، والبراكين الثائرة ، والشلالات المنحدرة ، والصواعق المدمرة ، فصاغ لها التماثيل ، ثم توهمها آلهة يخافها ، يعبدها ويتوسل إليها . وهكذا جرى هذا الإنسان مع الخيال ، يبتدع الأساطير والأشعار ، وينحت التماثيل والأصنام ، يفسر مظاهر هذا الكون ، ويضع أسس هذا التفسير التى كانت فيما بعد نواة للتطور الدراسى والجامعى الذى يدور كله حول تكوين الشخص لحفظ الأسرة والعشيرة والدولة ، حتى كان الإسبرطيون « مثلا » يسيطرون على تربية أطفالهم من يوم ولادتهم ، فكان على الأب أن يحمل ولده إلى دار الندوة ، حيث يجتمع رؤساء العشائر وشيوخ المدينة ، فيضعه بين أيديهم ليختبروا قوة جسمه وَتَحَمُّلَهُ لمشاق الحياة ، فإن وجدوه ضعيفاً حرموه حق الحياة ، وألقوه فى جب عميق تكون آخرته فيه ، وإن وجدوه قوى الجسم متناسب الخلق منحوه حق الحياة وعدّوه ابناً للدولة وملكوه قسطاً من

أرضها ، وتركوه لأمه إلى السابعة ، ثم بعد ذلك يسلمون أولادهم إلى مروضى الفتيان ، يحفظونهم قوانين فلاسفتهم وأشعار شعرائهم وأناشيدهم ، ويدربونهم على الرشق بالنبال ، والرمى بالرماح والمصارعة والملاكمة ، وغير ذلك مما تتطلبه الرجولة المكتملة التى تَسْتَذِلُّ مُتُونَ الطبيعة .

وهم فى كل ذلك يعملون على أن يكون الفرد للأمة والأمة ملك الفرد ، وهنا لا تبرز إلا المواهب اللامعة ولا تتقدم إلا الزعامة المنشئة . هـذا مثل من أمثلة القرون الخالية ، نقف فى تطورها عند هذا الحد ونترك ما تقدمه وما تأخر عنه ، ومهما يكن فإنه نمط من أنماط التضامن الاجتماعى والتكوين الجامعى فى أبسط معانيه وفى أعقدها ، ومثل من الأمثلة التى بعد أن تطورت أنبتت تلك الحضارات على ضفاف النيل وشواطىء الرافدين وفى بطاح أثينا وأسبرطة وروما ، ومثل من أمثلة التكوين والإنشاء الذى انحدر فى الأجيال الأوروبية نأخذ منه ومن أمثاله نزيد عليه أو نشذب ونهذب .

***

كان العرب فى جاهليتهم تتحكم فى حياتهم أنظمة العشيرة والقبيلة، فكان حضن الأم العربية مهداً من مهود العباقرة، على ذراعيها يترعرع الحب للحياة وَتُرْضَعُ أفاويق الرحمة والحنان، وبين أصابعها تعجن العجينة الأولى، وكان الخطيب من العشيرة يأخذ منبر المبشر والمنذر، يخوف القوم من عدو مهاجم، يجمعهم عند نزول الحرب، ويصلح ذات البين، وهو بعد كل ذلك رسول العشيرة إلى العشيرة الأخرى عند حدوث أمر جلل، كما يحدث اليوم فى إرسال الرسل بين الدول لحل المشكلات، وكان المحدث يقص عليهم آثارهم الماضية، ويحدثهم عن تاريخ الأمم الخالية، ويصف لهم أيامهم المشهودة ليتخذوا منها عبرة، أو لينسجوا على منوالها، أما الشاعر فكان حامى حماها، يصف أوطانهم ويسجل فخرها ويقيد حوادثها، ويرفع صوتها، وهو المعلم يعلم أولادها الفضائل، وبعبارة أوسع هو حكيمها فيلسوفها ووزير دعايتها.

فإذا وقعت عينك على الشعر العربى الأول وجدت فيه تعاليم الرجولة التى مظهرها العفة والسخاء والصبر والحلم

والكرم ، ورحابة الذراع والصدق والوفاء ، والرحمة والإخاء وعظم الهمة وحسن العهد . والعرب الأولون مندهشون من مثل هذه المدرسة ، ومن هذا الطراز فى التخرج ، ولم يجدوا فى قواميسهم كلمة تنطبق على هذا التكوين غير كلمة عبقرى ولا كلمة لمثل هذه المدرسة إلا كلمة وادى عبقره فإذا نشأ الشاعر فى القبيلة أقامت الأعراس ، وجاءتها الوفود من جميع الجوانب تهنئها فى هذا الناشىء الجديد .

* * *

ولما جاءت مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم تممت هذه المكارم ، وتوجتها بهذا المظهر الاجتماعى الحديث وهو : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » فخصب وادى عبقر وطفق يبعث للعالم بأولئك العباقرة الذين ضربوا وجه الدهر ، الذين لايزالون ثروة تاريخنا نكاثر بهم الأمم ونفاخرها ، وهنا كان الدرس الأول لمعنى الزعامة المبدعة التى تعرف قوة الأنصار والأعوان والتى تعرف كيف تختار الرجال .

طويت صفحة هذه المدرسة كما طويت مدارس القرون

الأولى ، ووسع الموالى بيننا وبين ماضينا شقة البعد ، وطمست معالم تاريخنا ، ففقدنا الأم المربية ، والمحدث الموجِّه ، والشاعر المهذب ، والمدرب المكون ، والرائد الذى يصطفى الأعوان ونظرنا حولنا نفتش عن تلك الحلقة المفرغة التى تكون الجامعة والبيت عند الأمم العادلة فإذا هى مهشمة محطمة ، فوقفنا وقفة الحائر بين ماضينا المزهر ومستقبلنا المظلم وطفقنا نتلمس أنظمة الأمم الخالية لنتخذ العبرة منها ، وأنظمة الأمم الحديثة لنأخذ أحسنها ، فوقعت أيدينا على مظاهرها وبهارجها.

ولذلك أصبحنا إذا تعلم أحدنا الفاتحة سمَّيْناه « علاَّمة » .

وإذا ثرثر فى ناديه يريد أن يقتعد مقعد الزعامة ، ولبس ذلك الجاهل معطف الكيد والمكر والذلة ، فهو تارة غبى وبليد ، أو مادح مغرض أو يؤوس قنوط ، أو ضعيف خوار بل هو ممحل الشخصية ، خَلِق الإرادة .

وتزمل ذلك المتزعم بن الثرثرة ببجاد الخيلاء والفخر ، وطفق يجمع أعوانه ونصراءه من بين أولئكم الجهال ليكونوا له ألسنة ثناء وتقريض ، يسترون عيوبه ويرفعون خيلاءه ،

ثم هو لهم بعد هذا الضامن للعيش والكافل للمنزلة ، يطوف بهم على دواوين العمل ، يستجدى لهم الوظائف ويهيىء لهم مرابض الرزق . وهنا مبعث الأثرة (الأنانية) وموطن المحسوبية . وهنا تعود تعبئة الغرائز للعيش العابر ، لا للحياة العامة ، وتصبح أماكن العمل للذين يعيشون لا للذين يدبرون ، وللذين يأكلون لا للذين يفكرون ، فتَنْسَحِبُ الفضيلة راجعة إلى مكامنها تجرر أذيالها ، وتبرز الرذيلة تتبختر فى خيلائها . وهذا هو مكمن الفساد الذى تنطق بالشكوى فيه أفواه المتكلمين وتصفه أقلام الكاتبين .

تفقد الأمة مصانع الرجال فى البيت والجامعة والمحيط والمجلس ، فتطلع رءوس الباطل ويعم الجهل والرياء والمكر والخداع والعدوان ، ويلتهم الانغماس فى النعيم جميع الفضائل التهاما وَيُفْسِدُ الآداب إفسادا ، ويتقلب الحق فى آلام الحسرة وَتَرَى الرَّجُلَ يَتَدَثَّرُ بِالْأَلْقَابِ كَمَا تَلُفُّ دودةُ القَزِّ حَوْلَهَا خُيُوطَ الْحَرِيرِ ، وَهِى فِى كلِّ أَطْوَارِهَا حَشَرَةٌ .

كَانَتْ الجزِيرَةُ أُمًّا وَلُودًا تَلِدُ العَبَاقِرة . فَهَلْ عَقِمَتْ أَنْ تَلِدَ الرَّجُلَ الذى يجمع فى قلبه الكبير كلَّ أفرادِ الأمة ؟ .

العبودية
تخلق أشباه الرجال

يقول نيتْشه فيلسوف الألمان : « يَكْمُنُ فى كل شخص طفل » وهو رأى صائب نتيجة لتحليل نفسى دقيق ، قد يراه نافذ الفكر واضحاً فيما يعرض عليه كل يوم من ألوان الناس فى غدوهم ورواحهم وجدهم وهزلهم .

وهذا الطفل الكامن الذى يذكره نيتْشه يختلف باختلاف الأشخاص ، فطفل العقلاء يبقى كامنا لا يظهر إلا حين يبلغ الجهد من العاقل مبلغاً يجنح بعده إلى راحة النفس من العناء وإلى استجمام الفكر بعد الإنتاج والإبداع ، أو إذا خلا العاقل بنفسه فى حديقته أو بين أولاده وزوجه وأهل بيته ، يطلق عنان النفس تلهو معهم وتلعب تداعب الطفل الصغير وتدلل الشيخ الفانى ، أو تضاحك شريكة الحياة . أما طفل أشباه الرجال فهو طفل « مدلل » أو « مدلع »

يَقْفِزُ وينط ويلعب ، ويعبث فى كل حين ، شاء هؤلاء الأشباه أو لم يشاؤا ، ففى عملهم عبث وفى عقلهم دخلٌ ، وفى إدَارتهم شئونَ الحياة خَلَلٌ وفى مشيتهم حركة تشبه قفز الطفل ونطه ، وعديد هؤلاء كثير فى الأمم التى لم تبلغ شأو الحضارة ، أو لم تستطع أن تفتح شدقيها بلفظ المدنية .

هذا الطراز من الناس فى كل الأمم سر تأخرها أو تدهورها ، طفلهم لا ينفطم ، يؤدبهم ولا يؤدبونه ، ويتحكم فيهم ولا يحكمونه ، ولو حملوا الألقاب وقعدوا فوق المناصب أو بلغوا من الإثراء حَدَّ الإشباع ومن الفقر حد الإدقاع ، فإذا دحرج حظ الحياة إلى أحدهم لقباً علمياً « مثل دكتور أو « ماچستير » أو « ليسانس » تمثله فى خياله كما يتمثل الطفل المحروم تفاحة ريا حمراء الجانب تملأ كفه الصغير ، فينط ويقفز ، ويعضها ويضحك لها ، ويتأملها تأمل الأبله ، تارة يضعها فى حجره ، وأخرى يرميها أرضاً ، لا يبالى أعفرت بالتراب ، أو لوثت بالأوساخ ، فإذا فرغ من العبث بها طفق يقضمها ، كما تقضم القوارضُ صِغار الحشائش ، يظن هذا

المأفون أن اللقب يعطيه العقل ، ولا يظن أن العقل هو الذى يعطى الألقاب ، وعلى أساس هذا المنطق المفلوج يتصرف فى شئون الحياة ، أصاب منصباً أو مغنما ، ومثل هؤلاء لا يصيبون المغنم والمنصب إلا عند الأمم الهزيلة فى حضارتها وتكوينها ، فإن أصاب المنصب أصابه شيطانان ، شيطان الحرص عليه وشيطان مركب النقص ، وفى هذا الحرص تضيع عنده مقاييس الأخلاق والمثل العليا ، لا ينظر إلا إلى نفسه ، كأن محيط الحياة خلق لشخصه ، وفى مركب النقص تطلع منه رءوس الرذائل فيمسخُ نَفْسَهُ ، ويغير كلامه وحركته وهندامه ، وهو لا يعلم أنه مفضوح الباطن ، وينشأ الشك فى صدره والوهم فى دماغه ، وهنا هات ما عندك من قوى الحجاج والإقناع ، وجرب ما سمحت لك التجارب أن تثنيه عن رأيه المأفون ، أو تصرفه المفلوك ، إنك لن تستطيع إلى ذلك سبيلا ، إن أراد رغبة من رغباته طلبها مُلْحِفاً ، وطلب لتحقيقها أن تتعدى حدود المقاييس والنظم والشرائع ، وجاء بسفسطة واهية وشعبذة يظنها فى تفكيره حُجَجًا دامغة

وأدلة مقنعة ؛ وإن أراد رئيس منه أمراً فى حدود المنطق والعقل أطرق رأسه وهز كتفيه ، وفرك إبهامه ، وأشار بسبابته ، وقلب كفيه وشرع يدير لسانه بين فكيه . فإذا نطق صَرَّحَ عن رأى فَجٍ أو عِنَاد يوحيه إليه مركب النقص ؛ يظن أن هذه الحركات تظهره مظهر العاقل أو تلبسه لباس المفكر ، طفله الكامن فيه يوجهه وهو لا يوجه طفله .

* * *

وطراز آخر من هؤلاء الأشباه يرتفع عن البله ويقرب من الضعفاء ، يعتقد أنه تعلم وحمل الكتاب والقلم ، إلا أنه واهن العزم مفلول الإرادة مسير فى أمره غير مخير ، مثله كمثل القرص المسجل يضعه آخر على قطب الحاكى ، فيغنى بما فيه والمحرك يرقص على نَغَمِه ويصفق لأغانيه ، والقول الفصل للمحرك لا للمتحرك وللباعث لا للمبعوث .

عند الفرد من هذا النوع شىء من علم الكتاب يجعله يروح ويغدو ، يقرأ ويترجم ويتأمل ويفكر ويضع الخطة ، ولكنه واهى القوة متردد حيران ، يقدم رجلا ويؤخر

أخرى ، يظن كل الظن أن الخطط لا تنضج إلا إذا طال بها الزمن ، فإذا وقعت بين يديه أو أُودِعَ أمرها إليه قَلَّبَها على وجوه الرأى ، ووضعها على مكتبه ، يذهب عنها ويعود إليها يحل وحده ويعقد حتى يعضل أمرها ، أو يخرجها من نطاق الإمكان إلى نطاق المستحيل ، ينسى حدة الذهن وقوة الحزم وسرعة الخاطر وإطاعة الخيال ، لا يساعده عقله أن يفهم أن الفكرة تلمع فى ذهن الذكى المجرب فى ثانية واحدة ولا تصل عقل الغبى البليد إلا بعد أيام أو أعوام ، وهى فى حدود العقل سواء أوضعت فى أعوام أو لمحت فى أيام .

وإن جاءته الفكرة من غريب عن بيئته بعيد عن محيطه آمنَ بها ، إيمان العجائز وتخذها آية منزلة أو شريعة محكمة مركب النقص فيه أنه يريد أن يظهر بمظهر المفكر ويتمنى أن يقدم إقدام الحازم ، وهو فى كلا الأمرين متأرجح حيران وضعيف جبان .

***

والطراز الخطر من هؤلاء الأشباه هم المتحذلقون ،

الذين دخلوا معاهد العلم وخرجوا منها بلا علم ، يكون عرام الطفل الكامن فيهم قويا ، وتكون لهم مراوغة الثعالب فى أفعالهم وصلافة الذئاب فى أقوالهم ، إن عزموا على أمر أقدموا عليه إقدام الذى يهاجم فريسته من نافِقَائِه ، ويهرب إن هوجم من قَاصِعَائِه ، يسندون ضعفهم بالملق والنفاق ، وينازلون خصومهم بالجدل والمراء ، ويتمرغون على أقدام الأقوياء ، أظهر ما فيهم مكر باسم ، وأقوى ما عندهم دعاية صلفة ، يرشون ويرتشون ، وَيُؤَوِّلُونَ كل عمل يعملونه ولا يفسرون كل غامض يأتونه ، يستبدلون قوى الفضيلة الكامنة بالغرائز المجهزة بالناب والمخلب ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويجمعون لأنفسهم كما يجمع النمل غذاءه للشتاء القارص ، ذلك لأن طفلهم لا يزال يعيش بالغريزة ويمشى بها ، ولا يثق إلا بالتفاحة التى بيده أو اللقمة فى فمه ، وإن رأى شبحا مقبلا عليه ظنه خاطفا يَخْطَفها من بين يديه ، فيعض عليها بالنواجذ ، يضطرب ويخشى ، يستنجد ويستعدى ويستضرى كما تستضرى غريزة الذئب ، هذه تهجم وتمزق وتلك تهدم

وتخرب ، وكلا الغريزتين تعملان عملهما لبقاء الفرد ، ولن تعيش جماعة يكون العمل فيها للأثرة والأنانية .

* * *

وطراز آخر يستر نقصه بطلاقة اللسان وحِدَّةِ العاطفة والاندفاع الأهوج . ولا يبالى أَدَمَّرَ أم عمر ، يثور كما تثور النار فى الهشيم ، سرعان ما يلتهب ثم يخبو ، وفى هذا الالتهاب لا يعرف على أى شىء أتى . هؤلاء الأشباه يعيشون فى الأمم القوية على هامش الحياة ، كما تعيش ضعاف الوحوش على حواشى الغابات التى تحرسها الأسود وهم فى الأمم الهزيلة يرتعون ويلعبون ، هم أسود الغاب ، وهم الثعالب والذئاب ، هم هم سر تأخر الأمم ، أبرز غريزة فى غرائزهم « أنانية مطلقة » ، وإذا تحكمت الأنانية المطلقة فى المجتمع فقد المجتمع صفات الاجتماع ، وأصبح مثله كمثل الحشرات المختلفة الهائلة التى تعيش فى مستنقع آسن ، همها أن تشبع غريزتها إن كان لها هم .

* * *

هذا هو معنى الانحطاط وهـذا هو سر تأخر الأمم .

أما كملة الرجال فهم المتجهون إلى الذرى الذين يبدعون للحياة كل لحظة شيئاً جديداً ، هم الذين يملون الفضيلة على الزمن ، ويرتجلون مكونات الجيل ونظم الأمم .

هم أسود الغاب ، هم مظهر القوة ، هم أهل الإرادة التى تخضع كل شىء لصالح المجتمع ، هم الذين تختفى الثعالب وخشاش الوحوش من زئيرهم ، هم الذين يعشون فى ظلال الحرية ويبدعون فى فضائها المطلق ، هم الذين يَقُصُّونَ أجنحةَ الخيال فيُحَوِّلُونه إلى حقائق تمشى على الأرض ، هؤلاء هم الذين يسجلون اسمهم فى سجل البشرية . . . . . »

لا يولد الرأى المنطرف
فى ظلال الحرية

إذا اشتجرت أشجار الغابة ، واشتبكت أغصانها ، وعفت دروبها وأسِنَتْ مياهها ، عسر على الأرجل أن تدوسها ، وعلى الأعين أن ترى محاسنها ، واختلط فيها فَحِيحُ الأفاعى وزئير الوحوش بنقيق الضفادع ، وطنين الذباب والبعوض والزنابير ، وطاردت فيها سموم الأفاعى أغاريد البلابل ، وافترست وحوشُ الغاب محاسنَ المها ، وانقض العقبان يفقئون أعين الغزلان ، فإذا هُذِّبَتْ الغابة وشذبت أغصانها ، وعبدت طرقها ، ودفنت آسنة مياهها ، عادت جنةً من جنات الدنيا ، تَلَذُّ الأعينُ فيها وتصغى الآذان إلى أغانيها ، وتجوس الأرجل خلال دروبها ، ويختفى الوحش الكاسر ، ويأمنُ الطير الجميل .

وهكذا الأمم مثلها كمثل مشاهد الطبيعة حذوك القُذَّة بالقذة ، فالأمة المهملة الضعيفة تشتبك أمورها وأحوالها ،

وتتضارب نظمها ونواميسها فتعلو الثرثرة على الوعظ ، والسفاهة على الحكمة ، والصلافة على الأدب ، ويأخذ الصلف القوى منزلة العاقل الهادى ، والثرثار الهِذِر مكانة الخطيب اللسن ، والدجال المشعوذ مكانة الأستاذ العالم والمُتَنَفِّجُ المحرور مكانة المتواضع الحليم ، فيهبط مقياس النفوس ؛ وإذا هبط مقياس النفوس ضعفت قوة العقل فى التحكيم ؛ وضاقت الصدور وطلعت رءوس التهم كأنها رءوس الشياطين ، فإذا قال رجل : ارحموا فقيراً يأكل الفقر أجسام أطفاله . أو أصلحوا حالة فلاح أو أشيعوا العدل بينكم تناهبته العيون ، وأشارت إليه بالأكف الأصابع ، وسلقته الألسن الحداد . وقالوا عنه : هذا مارق وإن قال رجل : يا قوم استثمروا قوى الشباب وقوى الطبيعة ، قالوا : هذا متحكم خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه .

وإذا وعظ مرشد فقال : يا قوم إنكم على ضلال وبدع شوهت محاسن دينكم ، قالوا : إنك أنت المبتدع الخارجى ، إنك تريد أن تخرجنا عما كان يعبد آباؤنا من قبل ، وَهَكَذَا

تَشِيعُ التُّهَم إذَا ضَعُفَتْ النفوسُ وتتبدلُ الحقائقُ إذَا ذَلتْ الرءوسُ .

* * *

إن الحقائق تتضح إذا اتسع أفق التفكير وإذا طفق العقل يرتب أفكاره ترتيب المناطقة ، ويستنتج أحكامه استنتاج الحكماء ، عند ذلك يعلم القوم أن الرجل لا يهون عليه أن يبدل تقاليده ومآثره بجرة قلم ، ولكن الجوعَ كافرٌ والفقرَ وحشٌ ضارٍ ، والجورَ ظلامٌ حالكٌ . كل أولئك تسد على المرء منافذ التفكير ، وتأخذ عليه سبل الخروج من الأزمات ، فيهون عليه التخلى عن حياته وعن أغلى ما عنده إذا رأى طفله يفترس الجوع محاسنه ، ويصبغ وجنتيه الورديتين بالورس ، ثم يراه عرياناً يقضقض البرد أضلاعه الرخصة ، أو تلفح الشمس نواعم أطرافه ، ويبلغ اليأس فى الرجل مبلغه إذا علم أن موته سيبدد أفراد أسرته عَبَادِيدَ .

* * *

إن الرعاية والعدل يضمنان بقاء تقاليد الأمة ومآثرها ،

فإذا نظمت الرعاية وشرعت لها النظم جاء العدل ، وإذا جاء العدل حكمت الطمأنينة ، وإذا حكمت الطمأنينة تحصنت التقاليد ، وعُض عليها بالنواجذ ، وإذا تحصنت التقاليد برزت خصائص الأمة . وإذا برزت خصائصُ الأمة اعتزت الأمة بكرامتها فيعم الأمن والإخاء ، وتنطلق الأنفس من عقالها تفتش عن مناطق السعادة ، فإذا وقعت عليها تفتحت الأسارير بالسرور ، ونشطت العقول والأجسام للابداع .

* * *

هكذا قطعت سويسرة والسويد وغيرهما من الأمم الحية دابر التهم ، ورعت الشعب رعاية ملؤها العدل ، وطفق المسئولون يفتشون عن مواطن السعادة والعيشة الراضية يرضون بها نفوس الأمة . فبدأوا عملهم من الأسرة التى هى نواة الشعب ، ثم الفرد الذى هو عضو فى هذه الأسرة ، ورافقوه فى طفولته وشبابه وشيخوخته ، فى يُتمِهِ وفقره وغناه ، فى صحته ومرضه ، يأخذون منه فى غناه ، ويعطونه فى حالة الفقر ، يستثمرون قواه ، ويقوون ضعفه ، لهم هو وهم له .

الإنسانية أولى مبادئهم والوطنية تاج هذه الإنسانية. فالسويسريون كلهم سواء أمام القانون، لا يعرفون أكثرية ولا أقلية، ولا طبقة ثرية أو طبقة فقيرة، عمروا الأرض فاستغل الشعب بأمواله هذا التعمير، وتمتع بجماله ففاض شعور الحب للبلاد والتقاليد والعادات، ووضعوا نظم الاجتماع التى تحرس هذا الشعور وتقوى أركانه. يُغْرُونَ الأممَ بزيارة ديارهم، ويفتحون مبطون الحياة والنظم لهم، فيأخذهم العَجَبُ ويتهافتون على بلادهم تهافت القطا على غدير الماء فى لهيب الهَجير.

بَسَطَ العدلُ رواقَهُ فانبسطت النفوس، وملأ الشعور مجامع القلوب فاحتضن القوم تقاليدهم وآثارهم احتضان القطا أفراخه، وحدبوا على وحدة شعورهم حدب الأم الرؤم، فأين تنبت الشيوعية أو تنمو النازية ؟؟..

إن النفوس القوية والعقول الجبارة تَقْتُل التهمَ وتقبل النقدَ تعليما والتقريع وعظاً، وبين التعليم والوعظ من جهة وبين التهم من جهة أخرى، بَوْنٌ بعيد، هو الفارق بين

الأمة الناضجة والأمة الناشئة .

وإذا حل النقد محل الوعظ والدلالة وماتت رءوس التهم انبسط رُوَاقُ الحرية ، فتمرح النفوس وتشتبك الآراء ، فيغلب الرأيُ الناضج الرأىَ الضعيفَ ، وتأخذ الحياة الاجتماعية مجراها كما يجرى النهر الهادى ، تنبسط عليه نَسَماتُ الريح ؛ وهنا موطن سعادة الأمة ، هنا تحتفظ الأمة بتقاليدها ، وتعض على دينها ومبادئها بالنواجذ ، ويصبح لها أسلوب فى الحياة تمتاز به عن بقية الأمم .

هكذا هى الأمة السويسرية ومثلها الأمة السويدية والنرويجية ، لها أسلوبها فى الحياة ، ولها نظمها ، ولها تقاليدها التى تغبطها عليها الأمم . . .

أُمّة تنشُد الحُرّية

مثل الذكرى فى تواريخ الأمم كمثل الربيع للأرض ، هذه ينزل عليها الغيث فتهتز وتربو وتُنْبِت من كل زوج ، بهيج وتلك تعْرِض مشاهدَ الوقائع آخذا بعضَها برقاب بعض ، مجدا بعد مجد ، وشهيدا مُضَمَّخاً بالنجيع إثر بطل مجندل ، وعبقريا مبدعا بعد عبقرى منشىء ، فتنتفض النفوس ويتجدد ربيع الحياة ، ويتفتق ذهن الجيل الحاضر لإتمام مآثر الجيل الغابر وتقف كتائب الأمة خاشعة الطرف قريرة العين إجلالا وابتهاجا ، تتأمل صحائف الماضين ، وتتخذ من عبرها معايير للحياة وَمُثُلاً لتربية الأجيال .

هذه من معانى الذكرى عند الأمم وذكرانا مثل ذكراها .

***

تنفُذُ قطرات الغيث فى مَسارب الأرض ، فيجتمع

بعضها إلى بعض ويزحم بعضها بعضا ، فتضيق بطن الأرض بها ذرعا ، وتشقق عنها سراعا ، وتنبثق عيونا وينابيع تجرى ماء نميرا .

وتختلط ذرات المعادن الملتهبة والأحجار المتنافرة فى جوف الأرض ، فتنفجر براكين تتلمس أرجاء الفضاء .

وهكذا الأمم ترتبك أحوالها ، وتشتبك نُظُمُها ، وتُطْمسُ معالم قوانينها ، فتصطرع أفواج الحق وكتائب الباطل بين يدى الجبابرة الأغبياء والعباقرة المبدعين فينتفض جسم الأمة يصرخ بالثورة ، ويدعو إلى الانقلاب يَتَلَمَّسُ فَضَاءَ الحرية وإرادةَ الحقِّ المطلق والعَدْلَ السوى .

هذا هو معنى الثورة ومعنى الانقلاب ، وهذا هو مايريده عباقرة الأمم وأبطالها فى إصلاحهم الثائر أو المسالم .

وهذا ما أراده لنا الفريق الأول من الشهداء والصديقين حين بعثوها لتهيئة جيل وتكوين حضارة ، وإيجاد شعب ووضع نظم ، وتحصين هذا الوطن المترامى الأطراف لترفرف الحرية فوق سمائه ، ويرافق هذه الحرية التنظيم والعدلُ اللذان

هما أساس السلطان العظيم .

* * *

نشبت الحرب العالمية الأولى ، والعالم يموج بالتنافس والتكاثر والدس والكيد واشتباك المصالح ، فوقعت الواقعة ودارت رحى تلك المعركة الهائلة لتطهير العالم .

كان أحد أقر أن هذا الصراع الكمالية العليا ، وقرنها الثانى المادية الصناعية ، ولكن الكمالية بقيت أحبولة يتخذها الخصمان معا مبدأ لهذا الصراع .

فنادى أصحاب الكمالية أصحاب الحق المهضوم : أن العالم يَتَمَخَّضُ عن مولود جديد ، لتنشئة جيل جديد وحضارة ممتازة وذلك المولود هو : تقرير الشعوب لمصائرها بنفسها .

مشت هذه الكمالية الخادعة إلى ميادين المعارك — وتَكَتَّبَتْ معها كتائب الأمم الطامحة إلى الكرامة ، فسالت بطاح الأرض بالدماء ، وخرت الجبابرة من عروشها واندثرت معالم أمم ، وظهرت معالم أخرى ، فطفقت المادية تخلع أثواب الكمالية المعارة ثوبا بعد ثوب ، وبرزت للعالم

بروز أنياب الوحوش الكاسرة وضمر ذاك الجنين الذى أراد أن يولد ، وعَادَ « تقريرُ مصير الشعوب بنفسها » إلى أيدى الجبابرة الطغاة وصار الحق نهبا مقسما ، والعدل رسما عافياً ،

***

أرادت الطليعة الأولى أن تبعث لنا من هذه الثورة وطنا حراً محصن الثغور من هذه البقعة فى الشرق الأسيوى الأدنى ، فتم العهد بيننا وبين أولى القوة ، ولكن الكمالية المعارة كانت تعبث كما تعبث الثعالب ، وتضع الخطة التى تريدها حتى تم لها مشروع سايكس — بيكوت عام ١٩١٦[1] ؛ فكانت هذه الخطة بدء المشكلات ، وأساس انتصار المادية الصناعية ، والتعبئة الأولى للقضاء على الكمالية التى كان « ولسن » يدعو لها .

ومنذ ذلك العهد أخذت الفكرة التى وضعها الرعيل الأول تتأرجح بين المطامع والمصالح ، وتأتى الذكرى تلو الذكرى فتلتهب النفوس وتتململ الأجسام ويُعلن العيد ،

---

(١) إشارة إلى تقسيم البلاد العربية التى تحررت من الدولة العثمانية .

وَتُحَبَّرُ المقالات وَيُكْتَبُ الاحتجاج ويقع الاضطراب .

وكل هذا نوع من أنواع الدفاع لإرضاء الغريزة التى يشبه إرضاءها ما عند ضعاف الدوارج وبغاثِ الطير ، تهدأ الغريزة عند هذه الكائنات ، إذا أدت أول فعلها الانعكاسى ، وهو منتهى ما تقوم به من الدفاع للبقاء .

كذلك تخمد جذوةُ نفوس الأمم التى لا تَقْرِن القول بالفعل بعد ارفضاض الجمع بدقائق معدودات ، كان لم يحدث شىء وكأن ماء الشطين[1] قد صُبَّ على القلوب فعادت باردة لا حراك بها ، غير أنها تنتظر وتتمنى على الله الأمانى ، وتريد ولا تفعل ، وتطلب الحياة العزيزة سهلة سائغة لا كد فيها ولا نصب ، وهذا طلب المحال فإنَّ المستَجْدى لا ينال إلا فُتَاتَ الموائدِ وَفَضَلَاتِ الأقوياء .

* * *

إن هذا الخصم[2] العنيد الذى نقف أمامه لا يفهم المنطق ولكنه يعرف أن الحق يناله من يفهم الحديد ، ونحن أمة

---

(١) دجلة والفرات .

(٢) الغرب المستعمر .

لم تعرف بأس هذا المعدن بعد ، وليس لنا قوة وبأس إلا قوة الحق ، وهى قوة تحولت من أدمغة المشرعين وأعماق الضمائر العادلة ، إلى أدمغة مخترعى الذرة وطغاة الأمم ، الذين دفنوا ضمائرهم فى خنادق مصالحهم ، وأصبحوا لا يبالون أن يضحوا بالعالم أجمع فى سبيل بقاء بلادهم واتساع أسواقهم ، ولا يهمهم أن يخرجوا أمة جمعاء من ديارها ، ويأتوا بشذاذ الآفاق ليحلوهم محلها ، لا يسمعون ثغاء الطفل الرضيع ، ولا يرعون ضعف العجوز المزمن إذا نام فى العَرَاء وَتَنَاهَبَتْهُ يد الطبيعة القاسية فى حرها وبردها ، وأطبق عليه الجوع الكافر بأنيابه ومخالبه .

هاهى ذه ذكرى التاسع من شهر شعبان[1] ، والوعى السياسى العربى حائر يقلب طرفه بين سمع الأرض وبصر السماء ، يتلمس حلا لهذه المعضلة الكأداء ، ويفتش عن منقذ من هذه الستراتجية المفتعلة التى تفتح ثغرة فى قواعد هذا البناء المحكم الذى أراده لنا الشهداء والصديقون من الطليعة الأولى ،

---

(١) بدء الثورة العربية .

الذين تحيي فيهم هذه الذكرى .

* * *

كتب السابقون الأولون هذه الذكرى بالدم ، وأخذنا نستقبلها عاماً بعد عام بالقول .

ومن طبائع الأمم الحية أن تأخذ أمجاد أوائلها فتبنى مثل ما بنوا ، وتفعل فوق ما فعلوا ، ولكنا أخذنا زَبَدَ الحياة فذهب جُفاء ، وأخذ الْخَصْمُ مَا يمكث فى الأرض وينفع ، فشرع ينظم خطط التعمير فسبق وتخلفنا ، وأخذنا ننظر إلى ما يفعل الخصم نظر المغشى عليه من الموت .

إن الوعى السياسى فى هذا الشرق الأدنى وعى ناضج ولكن وعى التعمير والاستثمار والتكوين الاجتماعى لايزال فى المؤخرة من قوافل الأمم .

* * *

إن هذه الذكرى ربيع فى حياة جيلنا هذا ، ولن يزهر نبت الربيع إلا إذا نضج وعى الاستثمار ووعى التكوين الاجتماعى فى هذا الشرق الأدنى ، ولن تبدو تباشير هذا الوعى

إلا إذا بعثناها حضارةً جديدة ، مؤسسة على قواعد التشريع الإلٰهى الذى يضمن العدل الاجتماعى ، وتكوين هذه الحضارة منوط فى نشر ثقافة عامة تضم أمجاد الأمة وآثارها ، فى ماضيها وحاضرها ، وتجعل منها أمةً فى شعور موحد ، تظهر به قيمة الفرد فى عين المجتمع ، ومكانة المجتمع فى عين الفرد .

إن ثقافتنا التى تَبْنِى حضارة جيلنا يجب أن تأخذ ناحية التكوين المتصل بالفرد ، فتضعها إلى جميع نواحي حياته الأخرى ، ومعنى ذلك أن تجمع إلى إيجاد الفكر المبدع تنظيما شاملا ، يُسهِّلُ على هذا الفكر ابتكاره وإيجاده .

إن القول الفصل لتكوين هذه الحضارة يكون فى أركانه العامة التى تتمثل فى العلم المتقن المبحوث المدلل ، والفن الرفيع والشعر المصور والتشريع العادل ، فى تكوين الدولة ، وتوجيه هذه الأركان توجيهاً يظهر فيه أثر المهارة ، عند ذلك تظهر قوة الشعب التى تفرض على الأمم والشعوب احترام الأمة .

هذه هى ثمرة ربيع الذكرى ، وهذه هى التى تفرضها

طبيعة الأمم التى توجد الحياة .

***

إننا فى زمن تَتَكالَبُ فيه الأمم على النقط « الستراتيجية » وتتداعى على اغتنام الوَقُود والمواد الأولية ، وتشتبك مصالحها ومطامعها ، ولن نقف أمام اصطخاب هذه الأمواج إلا إذا كانت ثقافتنا ثقافتَهُم ، وعلمنا مثلَ علمهم ، ووسائلنا مثل وسائلهم، وزعامتنا زعامة فعل لا زعامة شعوذة ودعاية وأقوال .

المجد . . المجد ! ! . . إرْكنوا إلى التنظيم ، فإن التنظيم ركنُ الإبداع ، لا تركنوا إلى الفوضى ، فترتبك أموركم ، وتشتبك سبلكم ، اقطفوا ثمار المجد فى توحيد صفوفكم ، واعلموا أن كل خُطْوة فى التنظيم طعنةٌ نجلاء فى كبد الخصم .

إن الغرب يعبىء تعبئة صامتة هادئة ، وهو يرمى إليكم كل يوم بأفواجه وأرتاله ، ليستثمر كنوزكم ، ويعبد متون سبلكم ، ويسد ثغوركم ، ويضع كل لحظة حلقة فى سلسلة الاستعباد ، ليسد عليكم منافذ الحرية العامة ، فإن كل ابتداع واختراع فى مواطن العلم والفن كسر غلٍ من أغلال الاستعباد

ولفظ رتل من أرتال الطامعين إلى وراء البحار ، وركن من أركان الاستقلال الذاتى ، وارتفاع عن الحاجة إلى الخَصْم .

***

ضعوا كل يوم أو كل عام لَبِنَةً فى صرح التنظيم الاقتصادى والتنظيم الاجتماعى والتنظيم السياسى ، فإنكم بعد أعوام تبدءون تملون على الزمن أن يغير اتجاهه ؛ ويبدأ يسجل لكم لا عليكم .

فى ظِلال الحُرِّيَّة
تبتسم أعياد الأمم

يُسْفِرُ صباح العيد فيبتسم ثغر ، ويبتهج قلب ، وتدمع عين ، وتوصل قَطِيعَة ، وتنسى الأحقاد ، وتدفن الضغائن ، ويشعر المؤمن بالفوز ، والطفل اللاهى بالسرور .

يسفر صباح العيد فيشيع السرور فى بيت ، ويمتلىء حُبُوراً ويلتئم شمل الأطفال والأسرة حول عميدهم ، يرفلون بِحُلَلِهِم وَأَرْدِيَتِهِم ، يتبادلون الهدايا بينهم ، ويستقبلونها من آبائهم وذويهم باسمين مشرقين ، ومهنئين مستبشرين .

يسفر صباح العيد ، فيمتلىء بيت حزناً وكمداً ، ويشيع فى جوانبه ألم ممض وذل وانكسار ، لا أب يبتسم ، ولا أم تفرح ، ولا حلة بهيجة ، ولا لعبة مسرة .. أيها العيد المسفر ! أنت مجمع الآلام والأفراح ، ومظهر القوة والضعف ، والعسر واليسر ، فيك تبتهج الأمم التى تحتضنك ، لأن فيك مظهرَ

عظمتها، ومعرض حضارتها وثقافتها فأنت للأمم فى ابتهاجها وسرورها، وحزنها وكمدها مثلك للأسرة.

أيها الصباح المسفر، لقد كنت فيما مضى تنبلج عن شبان أمتنا فى ميادين المجد، يقتحمون الجبال، ويستعذبون الأهوال، ويخوضون البحار، ويطوون القفار وراء غاية سامية وعمل مجيد تلك هِىَ نشر العدل والإخاء وإشاعة الحرية بين الناس، وكنت تنبلج عن قلوب مطمئنة بالإيمان، والثقة بالعقيدة، متحدة فى الغاية، مَشْبُوبَةٍ بالفداء.

كنت تسفر عن فتيان قريش والأنصار على روابى الأندلس الجميلة، وسهول الصين، فتبتسم لمقدمك الثغور، وتنبعث من نسيمك تحيات الفوز إلى الأب الضعيف، والأم الحنون، والزوجة المخلصة المنتظرة، والأخت المهيضة، والطفل الصغير، كنت تفتح لابتىَ الظلام عن هذهِ القلوبِ المُتَّحِدَةِ المؤمنةِ فى أنَّ البقاءَ فى الفَنَاءِ، والحياةَ فى الموتِ، والسعادةَ بالبلاء.

أيها العيد! كنت تنصل خضاب الليل عن شبان يشيعون الفضيلة، ويشيعون نور اليقين، ويبيعون أرواحهم وأموالهم

فى مرضاة الله، وسبيل الأمة، واطمئنان الضمير، ليبعثوا السلم فى العالم، والاطمئنان إلى القلوب، ويدكوا معالم الظلم، ويذلوا نواصى الطغاة.

عن أى شىء تسفر اليوم ؟ ؟ . .

إنك تسفر عن وشائج متقطعة، وقلوب متنافرة، وبيت كسير، وأسرة مفككة.

أيها العيد أشعر قلوب هؤلاء الناس أنك تعود كل عام، لمعنى فيك سام .. إن فيك معنى الوحدة، وضم الشمل والعطف والأخوة، وإنك مبتسم تبتسم لك الثغور، وتنشرح فيك الصدور.

أشعر الأم الفقيرة فى بيتها أن لا تذرف دمعة أمام طفلها الغض، لأن البكاء يشيع فى النفس الحزن، والحزن مجلبة اليأس، واليأس إذا دخل القلوب أماتها. وأشعر الأم الغنية ألا تمشى أمام طفلها مرحا، فتشعره أنها تريد أن تَخْرِقَ الأرض أو تبلغ الجبال طولا ! فإن المرح والاختيال يبعثان فى نفس الطفل الكبرياء، والكبرياء إذا دخلت النفوس

أماتت فيها مواهب الإبداع ، وأغلقت فيها أبواب الرحمة .

أشعر الموسرين الأثرياء ، أن السعادة ليست فى أكل سمين وفراش وثير ، وحلل فاخرة ، بل إن السعادة كل السعادة فى تفريج كربة مكروب ، وإطعام جائع ، وكسوة عار ، وإعانة محروم ، وتعزية محزون كئيب .

أشعر الوالد الحنون ، أن الأبوة أن ينظر الوالد إلى اليتيم الباكى المحدود ، مثل ما ينظر إلى ولده الباسم المجدود .

أيها العيد أشعر فتياننا وفتياتنا أنهم أَمَلُ الزمان الباسم وأنهم ينبوع الحياة ، وأن هـذا الينبوع لا يتدفق سلسلا إلا إذا كان صافيا كالماء النمير ، وأن هذا الصفاء لن يتم إلا فى اكتمال الخلق وصفاء الطبع ، والبحث وراء الحقائق ، والمشى سراعا بأقدام ثابتة ، والظمأ الدائم لليقين ، والاستقرار والاندفاع وراء إيجاد قواعد اجتماعية صحيحة ، ونظريات واضحة لاعبار عليها ، منها تتكون نظم الأمة وتتأصل شرائعها .

أشعرهم أن يستقبلوا الحياة بالأمل الباسم المنتظر ، وأفْهِمْهم أن هذا الأمل لن يتحقق إلا إذا مرحت النفوس فى فَضَاء

الحرية الواسع ، وأن مهر الحرية هـذه إيثار وإخاء وتضامن .

أشعرهم أن الشباب مزرعة الإرادة ، وأن نمو الإرادة فى الإيثار ، وأن الإيثار يخلق القلب الـكبير ، وأن القلب الـكبير عرينُ الإرادة الصلبة ، وأن الإرادة الصلبة هى التى تبدع . إن إبداع الأجيال من واجبات الشباب ، فأشعرهم بهذه الواجبات . دعهم ينبثوا فى مجتمعهم يدرسونه ، ويبحثون عن أدوائه ، فقد أَثْخَنَتْهُ الجراح ، إنه فقير عاجز ، إنه أمى جاهل ، إنه مريض مضنى ، إنه مبعثر مفـكك ، لا أمل له ، فهم أمله ، ولا سند له ، فهم سناده وعماده .

أفهمهم أن ينظروا إلى الأفق الواسع للأمم ذوات الحضارة كيف تفعل سواعد الشواب والشبان فى حماية ثغورها ، وكيف تبدع عقول الفتيات والفتيان فى تقدم علومها وارتقاء عقلها ، وكيف يندفع الشواب والشبان فى توسيع صناعتها وبناء مختبراتها ، ورفع مداخن صناعتها .

أفهم الشباب أن من أول واجباتنا أن نحمى ثقافتنا وحضارتنا ، وأن نتخذ من هـذه الثقافة والحضارة قواعد

للبنيان القوى الذى نكونه من عقل الجيل الجديد ، ومن ثقافات الأمم وحضارتها .

أيها العيد إنك عند الأمم المتحضرة مَلَكٌ تحمل على جناحك الأيمن الفضيلة ؛ وعلى جناحك الأيسر السرور ، وأن هذه الأمم لن تستقبل فضيلتك ، ولن تتمتع بسرورك إلا إذا تمت لها هبة الإرادة العليا التى وهبتها الإنسانية الكاملة : حريةُ الرأى والتفكير ، وحريةُ الضمير ، وهاتان هما اللتان يرتكز عليهما إنتاج الكتاب ، وبحث العلماء وخيال الشعراء ، وتفكير الفلاسفة ، وهما كل الكل فى وضع قواعد الاجتماع ، وأسس التشريع للأمة . وهما الكل فى اجْتِثَاثِ أصول الخرافة ، واستئصال أدغال الشعوذة ، هما اللتان تفضحان الخُبْثَ والخديعة .

حرية الرأى والتفكير تفتحان للأمة أبواب العزة والكرامة والقوة ، أشعر الشواب والشبان أن تكون تعبئتهما تعبئة تحرس هاتين القاعدتين .

وبعد . . أيها العيد أشعر الناس أنك لم تأت لِتَعْمُرَ

بيوت الخمر والميسر ، ثم أخبرهم أن الأمم بالخلق المتين ، والعقل الراجح ، والجسم القوى ، والروح الوثابة ، وأشعر الناس أنك تعود فى كل عام لتجدد مكارم الأخلاق ، وتشد أزر الإخاء ، وتبعث روح التضامن ، وتجتث خبث الضغائن ، وتملأ الأرواح بالسرور والهناء .

المحن تبعث الحرية

إذا ادْلَهَمَّتْ الخطوب برزت كوامن المواهب ، تجمع القوى وتعد الوثبة ، وتتربص بالزمن لتشق حجب الظلام ، وتفتح نوافذ النور لترى البصيرة ، ويبدع العقل فى خط الخطط ، وتعبئة الوسيلة ، والخروج من شدائد الأزمات

والمحن مثلها كمثل النار ، هذه تخرج الذهب الإبريز من الخبث ، وتلك تشحذ العقول وتنبه الغرائز ، وإذا انتبهت العقول استطاعت أن تضع يدها على مواطن الخطر ومكامن الداء ، وكمين الأعداء . هذه هى صفات النفوس الكبيرة ، ذات المروءة والشجاعة والطموح ، إلى الحرية الحمراء . أما النفوس الصغيرة ، فيسيل دمها على خدودها ، وتشق جيوبها وتحسب الانْتِفَاضَةَ العَجْلَى نجدةً كبرى ، والصرخة الذاهبة فى الريح استغاثة مثلى ، والتفضل بالْفَلْسِ الصغير دعوة الجفلى !

كلا ؟ . . كلا ! . . لن يكسر أغلال فلسطين دمعة منحدرة وجيب مشقوق ، وصوت حزين منكسر من تداعى الأمم ، واصطلاح الأهواء والنظم ، وبروز أنياب المحن !

والقول الفصلُ اليومَ للعقل المبدع ، والقلبِ الجرىء ، والصَّبْرِ الصادقِ ، والثبات المُوَطّدِ ، والإخلاص النزيه ، والخروج عن المال والروح والولد . فإن الخطر الداهم وباء منتشر فى ليل أسود حالك الإهاب ، وطمع لا تقفه حدود ولا تصده سدود ، وحلم صهيونى سادر ، تنبه على أجراس هذه المدنية الحاضرة ، بعد أن كاد يقضى عليه جبابرة الشرق والغرب ، وكادوا يخنقونه فى المهد .

برز الآن يتهادى مكشر الأنياب ، تسنده الدبابات والحراب ، ويمده الكيد الصهيونى والمال الأمريكى ، يتحدى دِينَ محمد ، وسيفَ صلاح الدين ، ونجدة المعتصم ، ويمد أطرافه وأذنابه مدَّ الأخطبوط زوائده ، ليضع روحنا وثروتنا وكنوزنا فى أرضنا وهوائنا فى جُماع قبضته ، وَيُسَخِّرُ عَضَلَنَا وعقولنا لدماغه الماكر .

هذه خطط الصهاينة العاتية ، لن تفلها إلا خطط عاتية مثلها ، وسلاح ماكر أشد من مكرهم ، وتعبئة منظمة أرْصَنُ من تعبئتهم .

التعبئة ، التعبئة ، فى البيت والمدرسة ، والمسجد الجامع ، والميدان الفسيح ، والشارع المزدحم .

والذكرى ، الذكرى ، فى تجسيم خطر الصهيونية الهاجم لاقتطاع قُوتِنا من أفواهنا ، وسلب حريتنا فى تنسم هواء فضائنا ؛ فإننا أمام قوم قساة ، يقطعون ثَدْىَ البِكْرِ بَدَلَ الدرهم ، ويحرقون الحرث والنسل فى سبيل الفلس .

أفسدوا الغرب بأعشاشهم ومنظماتهم ، واستولوا على مصانعه ومعامله ، وصحفه ودواوين محاميه ، وعيادات أطبائه ، لا تصعب عليهم وسيلة فى الوصول إلى النهاية ، ولا تبعد نهاية تريد وسيلة .

يريدون أن يُطْمِسوا معالم الشرق الأدنى وحضارته ، ويعيدوا جن سليمان وعفاريته ، وتكون لهم اليد العليا ولبقيتنا اليد السفلى . !

اشْتَرَوا أرض المعراج بالذهب الأصفر والكيد الصامت والدعاية المستترة ، ولن يعيد هذه الصفقة إلا الأصفر الوهاج ، والتنظيم الصامت ، والدعاية السافرة . والأصفر الوهاج عند ذوى الثراء والإقطاع ، الزاحف هذا الخطر على ثرائهم وإقطاعهم .

والتنظيم الصامت عند ذوى العقول والثقافة ، الذين سَتُسْتَعْبَدُ عقولهم وثقافتهم والدعاية السافر عند أهل الفصاحة والبيان ، الذين سوف تكم أفواههم وتحطم أقلامهم .

ولن تنفع العبدَ الثرىَ ثروةٌ ، وإقطاع ، ولن يفيد المثقف عقلٌ مسجونٌ ، ولن يُسْعِفَ اللّسِنَ قَلَمٌ محطم .

إننا نريد أن نخنق هذا الخطر الوليد فى مهده ، قبل أن يستوى على ساقه لنحفظ حريتنا وثروتنا وأقلامنا .

العَجَلَ ، العَجَلَ ! ، التنظيمَ ، التنظيمَ ! ، الدرهمَ ، الدرهمَ ! ، والإخلاصَ ، الإخلاصَ ! ، الثباتَ ، الثباتَ ! . . فإنه لا يحتمل الوقت التوانى ، ولا ينفع درهم بلا تنظيم ، ولا إخلاص بلا ثبات ، ولا ينفع زحف بلا تعبئة .

ولا بد من الزحف ولو بالسيف والخنجر ، فإننا إن صدقنا الوعد بالمقاطعة أهلكناهم جوعا فى عامين .

وإن صدقنا الزحف أمتناهم فى يومين .

فهرست

الموضوع	صفحة
كلمة	٣
حريتنـــا	٧
لسنا صيداً مباحاً	١٢
محمد (ص) يعلمنا الحرية	١٨
محمد (ص) يحطم أصنام الاستعباد	٢٨
الحرية والإبداع (بين الشرق والغرب)	٣٥
أزمة الحـكم (فى ظلال الحرية وكهوف العبودية)	٤٣
توزيع الثروة - بين يدى الحرية والعدل	٤٧
عراك الأحزاب فى ظلال الحرية	٥٧
الجامعات الحرة تخلق الرجال وتنشىء الأجيال	٦٣
العبودية تخلق أشباه الرجال	٧٤
لا يولد الرأى المتطرف فى ظلال الحرية	٨٢
أمة تنشد الحرية	٨٨
فى ظلال الحرية تبتسم أعياد الأمم	٩٧
المحن تبعث الحرية	١٠٤

شارع فاروق خلف ٢١ — القاهرة
ت ٥٠٩٣٨

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 074331826